أحلام عبير

ليلة ساحرة

كاتريا بريت

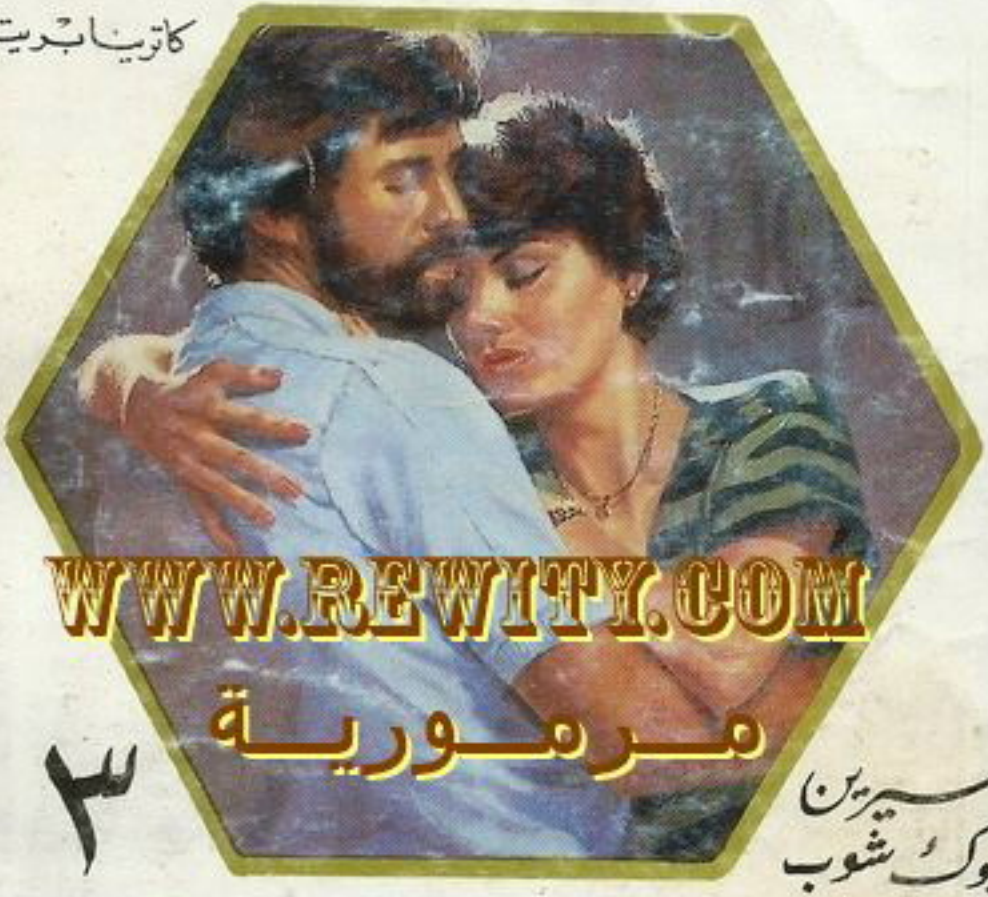

WWW.REWITY.COM

مرمورية

٣

سيرين بوك شوب

أحلام عبير ٧

www.rewity.com

حياة ايما، كانت تدور، بشكل ما حول ابن أخيها الصغير، فقد كان ضعيف الصحة، ومسؤوليته كبيرة، وكانت ايما مهتمة به جداً، حتى أنها قررت بثبات أن تتخلى عن أية فكرة عن الحب والزواج، على الاقل لبضع سنوات إلى ان تتحسن صحة الصبي. ولكنها عندما أقسمت على هذا لم تكن تتصور ما سيحدث! ففي سويسرا، حيث أخذت الفتى سعياً وراء طقس صحي له، قابلت ايما الدوق برويل دوبوليان أي بوقي. وتبين لها، أن الكونت يستطيع مساعدتها، وانقلب عرفانها بجميله إلى حب. ولكن يبدو أنه لم يفكر فيها أكثر من قضية تستأهل رعايته... ولماذا يهتم بها، في وقت تهتم سيمون غرونويل بحياته الخاصة؟

الفصل الأول

وقفت ايمي ليستر، بشكلها البائس، أمام النافذة تنظر بمرارة إلى تأثير الطقس السيء على الناس في الخارج، مثل تأثيره على ابن أخيها الصغير، الذي يشكو من ضيق في صدره. كانت مخلوقة صغيرة الحجم انيقة، ممشوقة القوام، بعينان بنيتان وبشرة بيضاء، في انسجام مع شعر أحمر لكن في تلك اللحظات جمال صفاء تعابير وجهها تكدره الافكار المزعجة، جبينها الناعم الفتي كان متجعداً بتقطيبة لرؤيتها بخار الضباب يتزايد خارج النافذة. فهذه هي لندن، حيث الضباب هو احدى عقوبات الحياة في العاصمة.

لم تكن الحياة سهلة عليها في السنوات القليلة الماضية، ولم تكن ايمي تنظر اليها سوى كتحضير لأوقات أقسى قادمة. ربما يكون شعورها هذا سببه الطقس الرديء، وجهدها لإبقاء نفسها شجاعة ومرحة في مواجهة الصعاب. ولكن مشكلتها أن الدموع كانت تنهمر بسهولة من عينيها هذه الايام، وخاصة عندما تكون لوحدها عرضة للهواجس.

وفجأة استدارت ونظرت إلى الباب. وبدت للرجل الذي دخل مثل الغزال الجافل بساقيها الطويلتين النحيلتين، المغطاتين بحذاء طويل ابيض، وتقدم الطبيب نحوها، وأقفل الباب وراءه. كانت تصرفاته توحي بالثقة. وكالعادة كان كارهاً لكونه حامل الانباء السيئة، وقالت له بصوت أرفع قليلاً من الهمس: «كيف هو؟» وانتظرت الرد بقلب

مرتجف. واجابها بهدوء: «من الطبيعي ان يكون الولد متأثراً بهذا الضباب الثقيل، ولا عجب في ذلك. لسوء الحظ الضباب ثقيل عليه. فهو بحاجة الى هواء نقي خفيف. ستكون سويسرا مناسبة له تماماً، هل فكرت في الذهاب الى هناك؟»

ـ اتعني ان ابيع كل شيء هنا وأذهب للعيش هناك؟

ـ على الاقل لسنتين.

ـ سنتين؟

ولاحظ ارتجاف شفتيها واسوداد عينيها من الأسى فابتسم وقال لها «إنها ليست نهاية الدنيا آنسة ليستر» ومد يده لها وقال «تعالي، اجلسي هنا لنناقش الموضوع» وتحركت ايمي وكأنها تسير في حلم، ويدها الصغيرة في يده وقادها نحو الكرسي. ثم وقف إلى جانبها وقال:

ـ الصبي لديه ضعف منذ الولادة في رئتيه. ولن يشفى تماماً. ولكنه قد يتحسن كثيراً في سويسرا خلال السنتين.

ـ هل قلت ضعف منذ الولادة. الا مجال لديه ان يشفى عندما يكبر؟

فهز رأسه بالنفي وسألها «لقد قلتي لي انه ولد في افريقيا الغربية» فهزت رأسها بالإيجاب «أجل.. شقيقي كان مهندساً وحصل على عقد عمل هناك، وكانت الفرصة التي ينتظرها، وتزوج صديقة يحبها، وذهبا معاً الى افريقيا الغربية، وولد جو، ابن أخي الصغير هناك، ولم تتحمل امه الجو هناك فمرضت، وعندما بلغ جو الثالثة، ارسلها معاً إلى هنا، وكان سيلحق بها، وكانوا في طريقهم الى المطار عندما قتلا في حادث سيارة، ونجا جو من الحادث، وهكذا اتيت به الى هنا.

ـ وبقي معك من يومها؟

ـ إنه معي منذ ثلاث سنوات، هو الآن في السادسة.

ـ أنا آسف لأنني مضطر لوصف طقس آخر، ولكنني أعرف انك تريدين مني أن أكون صادقاً معك.

ـ اوه.. يا الهي، بالطبع.. ولكن المشكلة أن الحياة في الخارج وخاصة في سويسرا مكلفة هذه الايام.

ـ هذا صحيح أليس لديك أقارب ليساعدوك؟

ـ لدي أخوين وشقيقة، ووالدايّ بالكاد يستطيعان إلباسهم وإطعامهم وتعليمهم، واهلي يعيشون في الشمال، ولا نتصل ببعضنا.

ـ أنا معجب بروحك العالية، واكثر من آسف لأنني لا استطيع شيئاً للصبي. ايمكن ان تجدي وظيفة هناك؟ أي فرصة؟

ـ ربما. فأنا أدرس في مدرسة مشهورة، قريبة من مدرسة جو. ولا أظن أنني سأكون محظوظة هكذا في سويسرا، ولكنني سأجرب الحصول على وظيفة تدريس أقرب ما يكون الجو.

وأعطاها وصفة دواء يساعده على التنفس وودعها وخرج، وذهبت لترى جو. غرفته، كانت لصبي صغير، جذابة ودافئة. وتحركت بصمت نحو سريره، ونظرت اليه بحنان، وقد اسند نفسه إلى العديد من الوسائد لإراحة تنفسّه، كان صغير الحجم بالنسبة لعمره. رسغاه الصغيران كانا نحيلان جداً، تسمع حشرجة انفاسه وكأنه على وشك السعال. كان يشبه والدته أكثر من ابيه، وورث ضعفه منها كذلك جماله الأشقر.

وتحرك بقلق، وبدأ يسعل، ومسحت شعره الاشقر بحنان، ثم نهضت وصبت كأس ماء ووضعته على شفتيه فشربه بعطش ونظر اليها بعينيه الزرقاوين الكبيرتين:

ـ اتمنى لو اتخلص من السعال، عندها لن أوقظك في الليل يا ايمي.

ـ هذا لطف منك يا جو. أتحب أن تذهب الى سويسرا وتتخلص من سعالك في جبال لا يجدنا بها أحد؟

واتسعت عيناه بالأمل «هل هذا صحيح؟»

وضربت ايمي ذقنه مداعبة وقالت «الدكتور أوصى بهذا، هل توافق على السفر إلى الخارج؟»

ـ أجل إذا كنت معي.

ـ إذاً، اتفقنا.

بحلول كانون الثاني كانا في طريقهما الى سويسرا. لقد تركا الآن

وراءهما الشتاء الانكليزي، وجو متشوق لبدء حياة جديدة مع محبوبته ايمي. لم يكن هناك مجال للتفكير، انمت كل شيء بشكل سريع وطارىء. وها هما يتجهان إلى هدفهما. وتركا جنيف، وهي تنظر من نافذة الباص مع جو، وأدهشهما صفاء الجو الخفيف والهواء النقي. كانت الطريق مزدانة بأشجار الكرز والحدائق مليئة بالورود. وتنشق جو هواء البلد الغريب الجديد، وبدأ باستيعاب المناظر ولم تبخل عليه ايمي بأي جواب على أي سؤال.

بعد مسافة قصيرة عند ميليريز، ابتهج بمنظر الميناء الجميل وفيه المراكب الشراعية، ثم انساب بهم الباص على حدود بحيرة تعكس كمرآة حقيقية، مناظر قمم الجبال المغطاة بالثلج. ثم استمرت الطريق عبر وادٍ تعلوه الجبال والسحب البيضاء بلون القطن تتراقص في سماء لامعة زرقاء. وكان الباص يخفف من سيره ليسمح لبعض الشاحنات المحملة بالاشجار بالعبور وكان جو ينظر إلى الأطفال على الدراجات الهوائية وهم في طريقهم إلى المدرسة.

لن تنسى ايمي أول نظرة القتها على تريون، القرية الصغيرة حيث سيسكنان ـ على كلا جانبي مدخلها توجد تلة عليها قلعة وسار الباص بهما بين بيوت طويلة لها شرفات جميلة.

توقف الباص أمام فندق متوسط، وأمسكت ايمي بيد جو ونزلت لتشعر بالهواء البارد على وجهها وهما ينظران الى موظف فندق لاشاست وهو يقترب لتحيتهما.

وحدق بهما السيد برولارد وقال «أهلاً بكما في تريون، لقد جلبتما الطقس الجميل معكما. هل هذه أول زيارة لكما لتريون؟»

ـ أجل أيها السيد، إنه مكان رائع.

ـ هل تشعرين بنقاوة الهواء آنسة ليستر؟ هل تشعرين بالبرد؟

وقال جو «أنا أشعر بالبرد».

فابتسم له السيد برولارد وهو يربت على رأسه «إذاً لا تضيع الوقت

لتدفئة نفسك.. الخادمة وضعت أكواس الماء الساخن في سريركما، وستتناول حساءً ساخناً، كيف ترى هذا؟» والتفت الى ايمي «هل تفضلين تناول الطعام في غرفتك آنسة ليستر؟»

ـ شكراً لك يا سيد، ولكن سأنزل الى غرفة الطعام عندما يجهز العشاء.

ـ إذاً هيلغا ستأخذكما الى غرفتيكما، العشاء عند الثامنة.

وأحست ايمي بالارتياح عندما رأت ان غرفتيهما كبيرتان يدخلهما الهواء وفيهما حمام، ودهشت لملائمة الغرف، لأن الايجار كان متوسطاً واقل مما كانت تتصور، وهناك مدافىء في وسطهما تؤمن الدفء والراحة، واسرعت لفتح مياه المغطس لتجده ساخناً، وخلعت ثياب جو عنه وانزلته الى المياه الدافئة وتركته هناك ليدفأ، وعندما دخلت هيلغا ومعها الحساء الساخن، كان يرقد في السرير محاولاً جهده البقاء صاحياً.

بعد وقت طويل، وبعد أن اخرجت ثيابهما من الحقائب، أخذت حماماً ساخناً، وتخلصت من الشعور بالبرد الذي كان يتملك أطرافها. وعندما بلغت الثامنة، كانت ترتدي ثوباً أزرق فاتح، وألقت آخر نظرة على جو، قبل أن تنزل لتناول العشاء. واستقبلتها في الردهة السيدة برولارد، التي سألتها إذا كانا مرتاحين في غرفتيهما، وأصرت على ايمي ان تطلب ما تريد، ثم رافقتها الى غرفة الطعام.

وبعد تناول العشاء فوراً عادت ايمي إلى غرفتها بسرعة، ولم تندهش لأن ترى أن أغطية سريره في فوضى ويده ممتدة الى الخارج. واسرعت اليه تغطيه، وتشد الأغطية من حوله، وهي تلاحظ عليه كل امارات البرد، السعال، والتنفس الثقيل، والحرارة المرتفعة. طوال تلك الليلة، ما بين جرعات دواء السعال، والماء، بدا أن جو لم يلاحظ وجودها إلى جانبه. وقرابة الفجر غطت بالنوم على الكرسي، وافاقت لتجده ينظر اليها بضيق. وقال لها وهو يشير الى صدره:

ـ أشعر بألم هنا يا ايمي.

تنفسه كان ثقيلاً، وخفق قلب ايمي، ولكنها ابتسمت له، ومدت يدها لتدفع خصلة الشعر الشقراء عن جبهته الساخنة، وقالت له مداعبة:

ـ اوه يا عزيزي! لن نتحمل هذا. اغمض عينيك لبضع دقائق وسأجلب لك شراباً ساخناً يريحك. لن أتأخر.

وقبلته بسرعة، ثم نزلت تفتش عن السيدة برولارد، التي حضرت بثياب النوم وألقت النظر على جو واقترحت إحضار طبيب.

عندما حضر الطبيب تفحص صدر جو، وكتب له وصفة، وعلق قائلاً «مسكين هذا الفتى الصغير، سيحتاج الى تمريض دقيق وكثير من الاهتمام، في الواقع من الافضل ان يذهب الى المستشفى» ونظر أولاً الى السيد والسيدة برولارد قبل ان تستقر عيناه على وجه ايمي الشاحب.

وتحدثت السيدة قائلة «هذا هراء! يستطيع الصبي ان يبقى هنا، فهناك الكثير منا للعناية به. في الوقت الحاضر ليس عندنا الكثير من الضيوف ونستطيع المساعدة» وتطلعت بطرف عينيها إلى ايمي التي ملأت عينيها الدموع. وقالت ايمي بصوت متهدج «كم هذا لطف منك. افضل بقاء جو هنا في جو مألوف حيث أستطيع البقاء معه» والتفتت الى الدكتور «أنا متعودة على تمريضه».

الفصل الثاني

الاسابيع القليلة التي تلت كانت كالكابوس، إيمي والسيدة والسيد برولارد وهيلغا، كانوا يتناوبون السهر على جو، واستخدمت الكمادات الساخنة والطعام السائل الساخن له، وتحلق الجميع حول الجسد الصغير المريض. ووصلت الفاكهة والزهور بغزارة من أناس لم تقابلهم ايمي أبداً، وأصبحت غرفته وكأنها بستان من الزهور، والعنب، والخوخ، وكل أنواع الفاكهة.

وكان الطبيب السويسري، واسمه جول ماكفارلان وهو في الثلاثينات من عمره، يزوره مرتين يومياً. وتدريجياً بدأ يتحسن. واعجبت ايمي بالدكتور، وخلال زياراته المتكررة علمت أنه أرمل، فقد زوجته منذ سنتين. وفي أحد الأيام خلال زيارته لجو، قابلته إيمي وهي في طريقها الى غرفة الطعام. فقال لها: «لن أزوركم كثيراً بعد الآن، فالصبي قد تحسن كثيراً. لقد كانت مسؤولية كبيرة عليك» ونظر الى يدها الخالية من الخاتم. وشعرت إيمي بوجهها يحمر عندما قرأت أفكاره، ورفعت ذقنها متحدية «أنا في الرابعة والعشرين، وجو ابن أخي، الذي قتل هو وزوجته في حادثة سيارة».

ووضع الطبيب يده في جيبه وبدا عليه الحرج، وقال:

ـ أنا آسف، لم يكن في نيتي التطفل، ولكن لا زلت عند رأيي أن الصبي مسؤولية كبيرة عليك.

وكان ردها صارماً «جو جزء من حياتي، جزء حيوي ليس لدي النية في أن أتخلى عنه».

ونظر مباشرة في عينيها «ليس من الحكمة أن تجعليه يصبح مهماً لك لهذه الدرجة. يلزمك دعم من عائلة أو زوج».

ـ لا أوافق معك، فأنا قادرة تماماً على العناية به بنفسي.

ـ ما اعنيه، أن الصبي لن يكون معك على الدوام، فهو مريض.

وبدا عليه القلق من شحوبها المفاجيء، فقد تحدث بصراحة جافة لم يعتد على استخدامها مع زبائنه، ولكن شيئاً ما حول هذه الفتاة التي تظن نفسها قادرة على اجتراح المعجزات اثاره، فتابع «أنا آسف لأن أكون فظاً هكذا، ولكن يجب دفعك لفهم الوضع كما هو. يتوجب عليك الزواج وانجاب اطفال، وكما هو الحال الآن أنت تخاطرين بتدمير حياتك لو حدث شيء للولد».

ورطبت شفتيها اللتان جفتا فجأة وقالت: «لقد أتيت بجو إلى هنا بناء لأوامر الطبيب، ليقوي هواء الجبال رئتيه، وتتحسن صحته. وأنوي أن أسهر على نجاح ذلك. كذلك أنوي البقاء بعيدة عن أي حب لأستطيع نذر نفسي له».

وتطلعت إليه بعينيها البنيتين الذهبيتين، وقد أقفلت شفتيها بتصميم، وكان واضحاً له أنها قد صممت على جعل الفتى شاغل وجودها، تضحية لا مكافأة لها، وحسب رأيه، لن تقودها إلا لتحطيم قلبها، فقال لها ببطء:

ـ أعتقد أنك تعنين كل كلمة تقولينها، وأعبر عن إعجابي بك لهذا السبب. فوجود هدف في الحياة، والاستعداد لتحقيقه، رغم كل المصاعب، يتطلب شجاعة. وهو واحد من الأشياء المهمة التي تعطي الحياة معنى، على كل لا تبالغي في تقدير قواك.

وفرد كتفاه العريضان، وأمسك حقيبته الطبية الصغيرة في إحدى يديه، ومسح ذقنه بيده الأخرى، وأردف «مهما كان المسافر قوياً فهو

بحاجة إلى دعم خلال رحلته، لذا لا ترفضي أبداً يد المساعدة، عندي بهذا».

وفي وسط شحوبها كانت عيناها تلمعان وهي تقول بهدوء:

ـ أعدك..

وتركها وذهب دون أن يلتفت، لتدخل الى غرفة الطعام.

أول يوم سمح لجو بالنزول الى الطابق الأرضي، استقبل بالفرح من السيدة والسيد ومن باقي الموظفين، وأقيمت حفلة شاي صغيرة خاصة، وقدمت له الحلوى والكعك، كذلك بعض الهدايا، وكتاب قصص سويسرية خرافية، خلال مدة مرضه نسيت إيمي كل شيء، بما فيها حاجتها الى عمل، وبما أن جو الآن قد تحسن، قررت أن تذكر هذا للطبيب، لأنه يعرف معظم الناس المحليين.

وتابع جو تحسنه، وأخذت إيمي ترافقه في نزهات إلى الخارج، أحياناً كانا يتنزهان قرب البحيرة حيث يراقبان الأطفال يلعبون، ويسبحون ويسيرون مراكبهم، أو يصعدان التلال ليتناولا الطعام على العشب الأخضر، واكتشفت إيمي أن سويسرا جنة لمحبي المشي، والمسافات هناك لا تقدر بالكيلومترات بل بالزمن الذي تستغرقه سيراً. واقبل الربيع وجلب معه الطقس الجميل والشمس التي بدأت بنشر حرارتها.

وكان هناك الكثير لإفراح جو. فقد كان يحب مراقبة الجنود السويسريين يسيرون بخطواتهم العسكرية عبر القرية، وإلى قاطعي الأشجار في الغابات يقطعون الجذوع الضخمة لتجرها الجياد القوية، وكان هناك الاحتفالات أيضاً في القرية أيام الأعياد، عندما يسير كل الاطفال بألبسة جميلة ويرقصون في ساحة القرية.

ومع ذلك لم تكن إيمي تبتسم كثيراً، فقد كان الصبي يقلقها، فهو يعرف حالته، وهي ليست من النوع الملائم لترعاه عاطفياً كما ترعاه جسدياً.

وفي أحد الأيام التقيا بالطبيب، فأوقف سيارته ونظر إلى جو نظرة

خبيرة وقال له: «حسناً أيها الشاب كيف تشعر اليوم؟.. ها لقد التقطت بعض الأزهار لإيمي... انت مدين بكل شيء لعمتك، لا تنسى هذا». وابتسم له وتابع «ما رأيك ببعض الايس كريم؟»

وهز جو رأسه بالإيجاب وقال: «شكراً لك يا سيدي» والتفت الطبيب إلى إيمي «وماذا تفضلين أنت، آيس كريم أم قهوة آنسة ليستر؟».

ـ ألن يؤخرك هذا عن جولتك؟

ووجدت أن هذا يتيح لها الفرصة لتسأله عن وظيفة، وقال:

ـ هواء الجبال يبقي مرضاي بصحة جيدة، وعلي أن أطلب منهم كسر ساق أحياناً لأزورهم.

وضحكت إيمي، بصوت جميل، وهو يفتح لها باب السيارة، وجلس جو بينهما. وتهادت السيارة نزولاً إلى القرية. وأوقف سيارته تحت الأشجار، وسار معهما نحو طاولة صغيرة خارج أحد المقاهي في ساحة القرية. وركض جو نحو البركة في منتصف الساحة لمشاهدة الأطفال يسيرون مراكبهم فيها. وطلبت إيمي القهوة وأخذت ترتشفها بتلذذ.

وبقي جول صامتاً، وقد وجد أن شيئاً بسيطاً مثل تناول القهوة مع هذه الفتاة الإنكليزية الجميلة، يعطيه شعوراً مريحاً بالمقارنة مع حياته اليومية العادية. وفكر وهو يراقبها كم هو مأساوي لها أن تفتقد الكثير من مباهج الحياة مع صبي صغير أصبح سجانها.

بعض الأحيان كان يرفع يده بالتحية للمارة واعجبت إيمي بفتاتين جميلتين تشيران بمرح، قالت: «يبدو أن السكان هنا جميلوا المظهر بطريقة مثيرة، هل هناك روابط لاتينية بينهم؟ إنهم يملكون وسامة الغجر».

فابتسم وقال: «طبعاً، التأثير الروماني والغالي لقرون عدة، أهل تريون معروفون بوسامتهم».

وتوقفت سيارة كبيرة دون إحداث صوت على بعد قدم منهما، وجفلت إيمي، ونظرت الى السائق، ها هو التأثير اللاتيني! عمره حوالي

الثلاثين، وجهه دقيق لقسمات، وشعر اسود كثيف مصفوف الى الوراء مع جبهة متوسطة بطريقة مألوفة للجمال اللاتيني، بشرته لها لون البرونز الذي يسببه جو الجبال، ويده الطويلة النحيلة السمراء مرتخية على المقود، تحمل دون مجال للخطأ طابع النبل. وأمسكت إيمي بأنفاسها، وقد أذهلها وجوده، في لحظة من تلك اللحظات المهمة في الحياة حيث يبدو الزمان وكأنه وقف مكانه، وأدار رأسه ليلتقي بنظرتها. ثم نظر إلى جول ورفع يده بالتحية.

ورفع الطبيب يده بالرد، وركض طفل من داخل المقهى وصعد إلى السيارة، وبعد لحظات كانت السيارة قد اختفت، وقال جول بهدوء:

ـ إنه الدوق دو بوليان إي بوفي، انظري هناك بإمكانك رؤية قصره، شاتو دي فلور أي قصر الزهور، فوق على التلة.

واتبعت عينا إيمي الإتجاه الذي امتدت إليه يد الطبيب لترى قصراً يقف بانعزال فخور، يشرف على القرية، وتمتمت: «إنه رائع، مثل مالكه، إنه التأثير الروماني اليس كذلك؟ أظن أن أسلافه كانوا من المصارعين الرومان، ماذا عن زوجته؟»

ـ الدوق ليس متزوجاً، لقد قتلت خطيبته بحادثة تزلج منذ عدة سنوات، والولد الذي شاهدتيه معه هو ابن أحد أصدقاءه، وهو يرعاه بغياب والديه.

وبدا على جول أنه فقد اهتمامه بالدوق، إذ سألها فجأة:

ـ هل تستطيعين قيادة السيارة آنسة ليستر؟

ـ أجل، لقد بعت سيارتي عندما اتيت إلى هنا، أعني أن ذلك ساعدني مالياً.

فابتسم ووضع كوب القهوة من يده:

ـ أسألك هذا، لأن سيارة زوجتي الراحلة الميني لا تزال في الكراج، لقد احتفظت بها لاستخدامها في حال تعطل سيارتي، وسيسعدني إذا استخدمتيها خلال إقامتك هنا.

- كم هذا لطف منك! ستساعدني على إيصال جو إلى المدرسة، هل لديك فكرة عن مدرسة محلية أرسله اليها؟

- المدارس المحلية تستقبل الأطفال حتى سن الحادية عشر، ولا أجد أي صعوبة في هذا المجال.

- ماذا عن المدرسين؟ هل هناك رجال ونساء؟

- هناك امرأة واحدة، الرجال مفضلون لأنهم يفرضون النظام على الصبيان، ولماذا تسألين؟ هل أنت قلقة على جو؟

- لا، كنت آمل أن أحصل على وظيفة في التدريس لأكون بقربه، لقد درست في مدارس كبيرة قبل قدومي إلى هنا، ولدي شهادات.

- إذاً أقترح عليك واحدة من المدارس العديدة الممتازة للبنات، ولن تجدي صعوبة في تأمين مركز لك هناك.

- ولكنها لن تكون قريبة من جو.

- إنها مشكلة، أليس كذلك؟ لا بد أن يبرز لنا شيء ملائم. ما رأيك لو نذهب ونلقي نظرة على السيارة؟

وصعدوا الى سيارة جول، وبدأت السيارة تمضي صعوداً الى التلال. ولاحظت أنهم وصلوا الى مرج صغير، يقع عليه شاليه من طبقتين وله شرفة تحيط بالطابق الأول ونوافذه ملأى بالأزهار، وفكرت في نفسها أنه مكان صغير جميل، ولكنها لم تعلق بأي شيء عندما أوقف الطبيب السيارة أمامه. ونزل وفتح باب الكراج، وأسرع بإخراج سيارة ميني خضراء وسأل إيمي عندما خرجت مع جو للنظر اليها: «حسناً، ما رأيك؟».

- ممتازة! هل تعجبك يا جو؟

- هل هي لنا يا عمتي؟

- سيعيرنا إياها الدكتور ماكفارلان.

فأحنى جو رأسه وقال: «شكراً لك يا دكتور.. سنعتني بها جيداً أليس كذلك يا إيمي؟».

وضمته إيمي اليها وقالت: «سنعتني بها ليس فقط لأنها معارة لنا بل لأنها ستكون صديقاً جيداً أيضاً».

فقال الطبيب برزانة: «أرجو أن تنظرا إليّ على هذا الأساس أيضاً، الا يمكن أن نستخدم أسماؤنا الأولى؟ اسمي جول».

وابتسمت إيمي وقالت: «وأنا إيمي» ونظرت إلى جو وقالت: «أرأيت، لم تحصل فقط على سيارة بل على العم جول أيضاً».

وتنهد جو تنهيدة رضى وضحكت إيمي وجول على تعبيره الرزين.

في الجبال هنا كانت الحياة سروراً لا حد له، في التمتع بجمال ما يحيط بهما. والحياة مع جو قد تكون مقيدة لها، ولكنه يحافظ على روحها الشابة، ونظرت اليه بحنان وهو يجلس الى جانبها، وهو يدير الإطارات المطاطية لسيارته اللعبة على ركبتيه، وفكرت بأنها لم تكتب حتى الآن الى أهلها لإعطائهم عنوانها الجديد. ولكن الهوة بينها وبين أهلها كانت أبعد من المسافة وأوسع من أن تصل بينهما رسالة. ونظرت الى ساعتها وقالت لجو: «بما أن هناك وقت قبل تناول الغداء ما رأيك بأن ننزل الى القرية؟».

فهز رأسه بالإيجاب، فالقرية تعني له الحيوانيت والأيس كريم والشراب المنعش. وتناولا الأيس كريم وشراباً بارداً، حيث جلسا في واجهة أحد المقاهي، وعند مغادرتهما المقهى قدمت فتاة صغيرة باقة زهور لإيمي وعلماً سويسرياً لجو، وسارا يداً بيد يتجولان في أزقة القرية. واقتربا من دكان حداد كان يضع حدوة حصان حمراء محماة في دلو ماء، ولفت نظرها الحصان وراكبه الذي كان يقف الى جانبه.

وخفق قلبها بشكل غريب، كان الرجل يرتدي ثياب ركوب مزركشة، سترة بنية وقميص بلون الكريم مفتوح عند رقبته السمراء القوية، ومرة اخرى، كما كان عند أول مرة التقت به، لاحظت إيمي أنه الدوق دو بوليان أي بوفي. هناك نوع من السمو يحيط به، دلالة على الأصل النبيل يجعله مختلفاً عمن حوله.

وشعرت إيمي بالاضطراب تحت نظرة عينيه الزرقاوين الثابته. وحاولت الابتعاد، ولكن جو كان مأخوذاً بحركات الحداد الذي كان يضع الحدوة على رجل الحصان. ولم تشأ أن تبعده عن هذا المنظر.

وانتهى الحداد من عمله، واستقام، وقال باحترام:

ـ ها قد انتهيت سيدي الدوق، أرجو أن لا أكون اخرتك كثيراً.

ـ شكراً لك يا صديقي.

واعطاه المال اللازم، وصعد الدوق الى الحصان واستدار مبتعداً.

وبعد أن تناولا الغداء تحت أشجار السرو في أحد المرتفعات، استلقت إيمي على العشب بينما أخذ جو يتجول في المكان، وكانت السماء قبة زرقاء تحيط بها اشجار الصنوبر والسرو، وقمم الجبال مكسوة بالثلج الدائم، ونادت إيمي على جو حتى لا يبتعد عن المكان، ولكن الوجبة الدسمة إضافة الى الجو العابق برائحة الأزهار، أعطاها شعوراً بالتراخي، فأغمضت عينيها. واستفاقت على شيء يداعب انفها، فعطست وفتحت عينيها لتجد جو منحنياً فوقها يداعب أنفها بعشب طويل الساق. وضحك، وامسكت به، وجذبته الى العشب وبدأت تدغدغه إلى أن توسل إليها أن تتوقف.

واحتضنته بقوة وقالت: «لن أتركك أبداً، سأبحث عن عمل قريب من مدرستك». فابتسم وقال: «أوه إيمي، هل هذا صحيح؟» وأجابته: «سأحاول».

وعادا الى الفندق حيث استقبلتهما هيلغا والسيدة بترحاب، وراقبته إيمي مع المرأتين وهي مسرورة لصداقته معهما، منذ مرضه كان يتناول عشاءه عند السادسة مساء في المطبخ الدافىء في الفندق، على طاولة صغيرة في الزاوية حيث يأكل ويراقب كل ما يجري حوله، وبما أن العشاء لا يقدم قبل الثامنة لم يكن العمال ينزعجون من وجوده بل على العكس يتمتعون بمجادلته الحديث، وكان هنري، رئيس الطباخين، يفاجئه دائماً بقطع حلوى بأشكال غريبة على شكل طيور وحيوانات،

واليوم كانت على شكل دجاجة سمينة ترقد على بيضة، وكان جو مسروراً بها.

عندما كانت إيمي تضعه في فراشه قال لها:

ـ لقد أخبرت هنري عن الحصان عند الحداد. لقد قال ان الدوق لديه الكثير من الخيول في اسطبلاته، اتمنى لو أراها.

وقالت إيمي بحزم: «حسناً، لا نستطيع هذا، لا يمكن ان نزعج الدوق بأولاد صغار في اسطبلاته، إضافة إلى أننا لا نعرف الرجل، لهذا إنس الأمر، يوماً ما سيكون لديك حصان جميل كحصانه. وستبدو وسيماً جداً عندما تكون راكباً عليه، وكل الفتيات ستجري خلفك».

وهزت أنفها له مداعبة وضحكت.

الفصل الثالث

في صباح أحد الايام، جاءها رد على رسالة كانت قد ارسلتها إلى إدارة إحدى المدارس. وايمي ستقابل المدير عند الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي.

تقع المدرسة على التلال. وفي الطريق مرت ايمي بالطريق التي توصل إلى «شاتو دي فلور». وعندما وصلت الى المدرسة، بدت لها مهجورة بعد أن أوقفت السيارة ونزلت منها لتحدق بالنوافذ الصغيرة المزدانة بالزهور. ولم يكن هناك أصوات أطفال عندما فتحت ايمي الباب الرئيسي ودخلت. كانت الردهة صغيرة، وقد لا تتجاوز زاوية من زوايا الردهة في المدرسة الكبيرة التي كانت تعمل بها. ودخلت بهدوء لتواجه ممراً فيه ابواب، حيث أوصلها الى فسحة فيها لوحة عليها بعض التعليمات، وكان هناك مذكرة تعلن أن المدرسة مقفلة حتى يوم الاثنين لإجراء تصليحات في السقف.

إذاً، لن تفتح المدرسة قبل الاثنين، وهذا ملائم لجو، أول باب في الممر كان مكتوب عليه «ادريان ويستا، رئيس المدرسة» وقرعت ايمي الباب وسمعت صوتاً يدعوها للدخول، فدخلت، خلف الطاولة كان يجلس رجل أبيض الشعر مسن، بدا في سن التقاعد. ومع ذلك فنفحة الشباب لم تتخل عنه بعد، فقد كانت تلتمع في عينيه البنيتين، وفي زوايا فمه المرحة عندما يتحرك ووقف لتحيتها ومد يده سائلاً «الآنسة ليستر؟».

وهزت رأسها وهي تبتسم بارتياح. وابتسم هو ايضاً، وفوراً بدا التفاهم بينهما. وقال «أرجوك اجلسي» وانتظرها إلى أن جلست في المقعد المواجه لمقعده خلف الطاولة ورفع رجلاً فوق الاخرى ومال إلى الامام وقال «ماذا استطيع أن أخدمك آنسة ليستر؟».

وارتاحت ايمي لحرارة استقباله، ووجدت نفسها تخبره كل شيء عن جو بسهولة وصراحة. واستمع اليها، يهز رأسه بين الحين والحين خلال شرحها له بصوت وقع براحة على اذنيه. ثم مال إلى الامام أكثر ووضع يداه فوق الطاولة، وسألها بضعة اسئلة. واجابته ايمي بما ارضاه، وانتهت المقابلة، بعد ان قبل جو في المدرسة ابتداء من الاثنين. لقد كان هذا الرجل ودوداً جداً حتى انها كانت على وشك أن تسأله عن وظيفة، عندما سألها هو إذا كان جو معها، وعندما ردت بالنفي قال «كان من الافضل لو أريناه المدرسة حتى لا يكون مستغرباً يوم الاثنين».

ـ لطف منك ان تقترح هذا، هل استطيع جلبه معي غداً.

ـ طبعاً، الحارس سيكون موجوداً، سأقول له انك قادمة.

وبدا وكأنه يفكر في شيء آخر فقال «ستقام حفلة في حديقة «شاتو دي فلور» يوم السبت لمصلحة مساعدة نشاطات المدرسة الرياضية. والدوق يقيم الحفلة كل سنة. وسيكون للتلاميذ امكنتهم الخاصة، وستكون فرصة جيدة لابن أخيك ان يتعرف بزملاء صفه.

في طريقها الى القرية، توقفت لتريح اعصابها قليلاً تحت الاشجار، وعندما حاولت العودة، رفضت سيارتها الدوران. وحاولت ايمي ثانية وثالثة، لكن دون جدوى.. لسوء الحظ كانت قد اوقفت السيارة في مكان غير ملائم لطلب المساعدة. واقرب مكان لها كان «شاتو دي فلور» الظاهر بين الاشجار إلى يسارها. ولكن منظر القصر أفزع إيمي، وتركت السيارة لتلقي نظرة على المحرك، قبل ان تهبط لتجد اقرب علبة هاتف قريبة منها. وكان رأسها في الواقع تحت غطاء المحرك عندما اقتربت منها

السيارة الناعمة الطويلة وتوقفت بالقرب منها، وخرج السائق من مقعده، وكان الدوق دو بوليان اي بوفي، وقال «هل هناك مشكلة؟» وانزعجت ايمي من الحرارة المفاجئة التي تصاعدت إلى خديها وقالت بصراحة:

ـ لم استطع إدارة محرك السيارة.

ـ هذا ليس مستغرباً في هذا المنحدرات. فالمحرك يفقد بعض من قوته في هذا الجو الرقيق الكثافة كلما زاد الارتفاع.

واخرجت ايمي رأسها من تحت غطاء المحرك، وكان يقف على بضع اقدام منها، وتابع:

ـ شخصياً افضل السير على السرعة الثانية في هذه التلال، هل جربت منعطفاتنا القوية أم انك تخافين منها؟ بعض السائقين يخافون، والبعض لا يجد صعوبة في اجتيازها، ما عليك سوى ان تنتصفي الطريق ثم تستديري ببطء.

واصغت ايمي اليه وهي تعرف انه يعرف ماذا يقول. وكانت عيناه تتفحصان السيارة وهو يتكلم، ثم أخذ ينظر اليها بدقة. ارتفاع الدم الى وجهها زاده تألقاً، وسواد عينيها الذي يتمايز ازاء لونها الابيض، وفمها مفتوح قليلاً. وقالت:

ـ أنا لست خائفة، ولكنني متأكدة أنه لا يوجد أحد يتمتع بهذه المنعطفات الخطرة. وأنا شخصياً أجد النزول عليها هو الأسوأ، لأنك لا تشعر بالسيارة ثابتة ـ فالتسلق مربح أكثر.

ـ معك حق، ولكن المرء يعتاد عليها، أهم شيء التأكد من سلامة السيارة وحسن عملها. هل هذه السيارة تخص زوجة الدكتور الراحلة؟ هل كنت تعلمين أنها بحاجة إلى التصليح؟

ـ لقد كانت حسنة الاداء حتى الآن.

ـ ربما من صالحك أنها لم تدر.

ـ ولكنني متأكدة أن الدكتور ما كان ليعطيني إياها لو علم أنها بحاجة إلى إصلاح.

ـ إنه يعرف، ولم يكن يريد دفع فاتورة الإصلاح.

ـ هذا كلام مزعج تقوله عن الدكتور.

ـ الدكتور، بالنسبة للمال رجل ينزعج فوراً، سأقول لك أكثر، سيتصل بك قريباً ليقول إن السيارة بحاجة إلى إصلاح. وستشعرين بالامتنان لحسن تفكيره، وتعرضي عليه دفع الفاتورة بنفسك.

وانزل غطاء المحرك ودخل إلى مقعد السائق وقال:

ـ الآن حتى تديرينها عليك الضغط على دواسة البنزين وتركها حتى تدور وارفق قوله بالفعل، ورمقها بنظرة ساخرة عندما بدأ المحرك بالدوران. فتمتمت بالشكر واسرعت لتأخذ المقعد الذي اخلاه. ولكنه امسك ذراعها بأصابعه وقال «سأتركك تقودينها بالرغم عني. هناك خلل في المحرك يحتاج إلى إصلاح فوري واصر أن تأخذيها إلى الكاراج للتصليح».

ـ اعدك بهذا سيدي الدوق، نهارك سعيد وشكراً لك.

عندما وصلت الفندق اسرع جو لاستقبالها وبيده كيس من الحلوى اعطاه لها قائلاً:

ـ خذي، لقد صنعته والدة هيلغا، وقد وفرت لك نصفه.

ـ شكراً لك، هل امضيت يوماً جيداً في المزرعة مع هيلغا؟

ـ أجل، ولكنني تمنيت لو كنت معي، هيلغا عندها ثلاث عنزات ومئات الابقار و... اوه أجل، قطة لها ثلاث قطط صغار، اتأتين معنا في المرة القادمة؟

فقالت له «بالتأكيد» واخذت يده وصعدت به الى غرفتها، ولم يكن يشعر بالجوع وعلمت أنه تناول ما يكفي في المزرعة، فلم تجبره على تناول المزيد، وغط في النوم فور أن وضعته في الفراش.

ولم تكن تشعر بالنعاس فقررت ان تتمشى قليلاً بعد تناول العشاء، وسارت بين الاشجار وهي تشعر ببرودة امسية الربيع، فرفعت ياقة معطفها حتى غطت اذنيها. في مثل هذا المحيط الرائع بدت لها مشاكلها

غير مهمة، من المهم لها ان تجد وظيفة، وإذا لم تجد عملاً في التدريس فستسعى إلى شيء آخر. ولكن ماذا؟ ولم تكن قد وجدت حلاً بعد عندما أجبرها الظلام على العودة إلى الفندق.

واستقبلتها السيدة وهي تدخل وقالت إن الدكتور ماكفارلان على الهاتف. وقال لها بعد أن امسكت بالسماعة «ايمي؟ لقد اتصلت قبل الآن وكنت في الخارج. هل السيارة على ما يرام معك؟»

- عظيمة شكراً.

وقررت أن لا تقول له شيئاً عن مقابلتها مع الدوق، فقال:

- كنت أفكر بها، واشعر بالذنب لأنني لم اصلحها قبل اعطاءها لك. أظن ان من الافضل إجراء التصليح بأسرع وقت ممكن.

- في الواقع هي الآن في الكاراج لإصلاح عام. فأنا الاقي صعوبة بادارتها، وفكرت ان من الافضل اصلاحها.

- أنا مسرور لسماعي هذا، لا اعتقد انها تحتاج للكثير من الإصلاح. لقد كنت اخرج من وقت إلى وقت لإبقائها جيدة.

وكبحت ايمي ابتسامة، وهي ممتنة ان الدوق لم يكن يستمع. إذ تستطيع تخيل ابتسامته الساخرة ونظرته المقلقة. فقالت:

- لقد قُبل جو في المدرسة المحلية، وسيبدأ دروسه يوم الاثنين.

- هذا رائع. اعتقد الآن أنك ستسعين لوظيفة

- أجل.. إذا سمعت عن أي شيء مناسب

- سأعلمك فوراً، ما رأيك بالعشاء معي ليلة السبت؟ هل آتي لآخذك عند السابعة والنصف؟

- أجل.. أرجوك.

ووضعت السماعة وهي تفكر، إذاً، لقد اتصل بها الدكتور كما قال الدوق تماماً، دون ان يذكر بأنه سيدفع الفاتورة. والتفكير بأن الفاتورة قد تكون كبيرة أزعجها، وجعلها ترى كم ضروري لها أن تحصل على الوظيفة بأسرع وقت ممكن. ثم صعدت الى غرفتها لتنام.

في الصباح التالي كان عليها ان يسيرا صعوداً إلى المدرسة، وقابلهما الحارس هناك، وابتسم لجو وقال «إذاً أنت تلميذنا الجديد، ما اسمك؟»

- جو يا سيدي. هل انت الاستاذ؟

وابتسم الحارس، ودون أن يشعر جو، حصل على صديق.

- لا.. اسمي جايمي.

ووضع ذراعه على كتف الصبي وقاده إلى الداخل. وتبعتهما ايمي وهي متأكدة أن جو سيكون على ما يرام.

واستلمت السيارة صباح السبت كما وعدت. ودهشت لمبلغ الفاتورة، كان ظاهراً أن هناك قطع غيار جديدة، وعدة أشياء اصلحت فيها. وهذا ما أحدث ثقباً في المبلغ معها. وامضت معظم النهار وهي تبحث في الجريدة عن وظائف شاغرة، ولكنها لم تجد شيئاً مناسباً.

بعد الغداء، توجهت مع جو إلى حضور حفلة الحديقة في شاتو دي فلور. كان يوماً جميلاً للحفلات، والسماء الزرقاء خالية من الغيوم. وافرغت ايمي رأسها من كل المشاكل، وصممت على إمتاع نفسها. وسألها جو:

- هل سنرى الجياد يا ايمي.

- لا أظن يا صغيري.

واوقفت سيارتها في فسحة بين سيارتين.

الساعتين اللتين تلتا، تمتع كلاهما بهما لأقصى حد، وشاركا بكل أنواع التسلية. واحب جو المناظر الجانبية في القصر حتى أنها اضطرت لجره لتناول الشاي.

ولم تشاهد الدوق ولكنها قابلت رئيس المدرسة، وقدمت له جو وتبادلا الحديث لفترة، وعندما تركه الرئيس للانضمام إلى بعض الاصدقاء افتقدت ايمي جو. كانا قد انهيا تناول الشاي، وظنت أنه ذهب لتناول بعض الليمونادة. من مقعدها كانت تستطيع رؤية كامل مكان الحفلة ولكن جو لم يكن ظاهراً في أي مكان، وانتظرت ايمي

خمس دقائق، وهي تفتش المنطقة بنظرة مضطربة، لم يكن من عادة جو الذهاب الى أي مكان دون أن يقول لها. واقتنعت أنه ليس موجوداً هناك، وبدأت تفتش الحدائق دون نجاح. رجعت أخيراً الى مكان الحفلة ولم تجده، فعادت لإكمال البحث عنه.

في النهاية وجدت ايمي نفسها خلف القصر تنظر إلى الحدائق المزروعة بشكل رائع ومروج خضراء ودرجات عريضة تقود نزولاً إلى ممرات مليئة بالورد ونوافير وسط مساكب الزهور. وتوقفت لتشاهد نوافير الماء الصاعدة إلى أعلى وهي تتحول إلى لون الفضة تحت أشعة الشمس، وتساءلت ما إذا كان جو قد مر من هناك ومال فوق حوافي النوافير لتسيير قاربه الذي ربحه في الحفلة.

وبعد دقائق كانت ايمي تنظر عبر الماء الصافي في البرك، ولكنها لم تجد أثراً لقارب جو. وفي اللحظة التالية تطلعت لتجد الدوق دو بوليان اي بوفي يراقبها من الناحية الاخرى للبركة. واجفلت واطلقت ضحكة صغيرة وقالت معتذرة «أخشى أن أكون متطفلة، أنا أبحث عن صبي صغير» ورفع حاجبيه وقال «ما الذي جعلك تفكرين أنه هنا؟ هذه حدائق خاصة هل فتشت في مناطق أخرى من مكان الاحتفال؟».

ولاحظت ايمي استياءه. يا للسماء، هل يعتقد أنها إنما تتجول هناك فقط؟ ولعدة لحظات غير مريحة، شعرت بأنها مجبرة على التعاطي بصبر مع الوضع إلى أن جعلها قلقها على جو تتصلب. فقالت بهدوء:

- لم أكن لأجيء إلى هذا المكان لولا أنني قلقة بعد تفتيشي في المكان هناك دون نجاح.

فقال ببرود «هل من عادة الصبي التجول بعيداً؟»

- لا، لم يفعل هذا من قبل دون إخباري. إنها المرة الأولى.

- من الواضح أنه ليس هنا. هل لديك فكرة أين يكون قد ذهب؟

فهزت رأسها نافية، فقال لها بصوت عميق بارد، وكأنه يقر أمراً واقعاً:

- أين كنت عندما افتقدته؟

- لقد افتقدته اثناء تناول الشاي تحت الخيمة. ظننت أنه ذهب لشرب الليمونادة.

- إذاً كان أفضل لك ان تبقي حيث انت إلى أن يعود. ولكن كمعظم النساء لقد ذعرت.

- إننا في بلد غريب وهذا عمل غير عادي من جو.

- قبل أي حركة قادمة، لنستعيد ما حصل أولاً، ولا تظهري هكذا بمظهر مأساوي، فلم يحدث شيء بعد سوى ضياع صبي صغير. هل اتيت بسيارتك؟

- أجل. لقد أصلحتها.

- فتاة عاقلة! اعتقد أن الفانورة لم تكن مكلفة؟ وأنا اكيد أنك وجدت فارقاً في ادائها.

- اوه. طبعاً.. لقد أصبحت كالنحلة.

- هل تبحثين عن الصبي الذي شاهدته معك عند دكان الحداد؟

- أجل.

واتى ردها من عواطف مختلفة، إذاً هو لم ينس أنه رآها من قبل. لا بد أنه سمع برغبة جو بركوب الحصان وتجاهل الامر. وتابعت تقول:

- لقد اعتقد أن حصانك رائع. فالجياد نادرة هذه الايام. وجو يحب الحرس على الجياد في لندن. ويريد أن يصبح واحداً منهم.

- حقاً؟ وهل تسكنين في لندن؟ وهل اتيت لقضاء عطلة؟

- لا.. فنحن هنا لمدة سنتين. فابن أخي، جو، مصاب بمرض صدري، وأنا آمل أن يشفيه هواء الجبال.

- يا للولد المسكين! هل انت هنا بدلاً من والديه؟

- والداه قتلا في حادث سيارة عندما كان في الثالثة من عمره.

- ووصيه؟

- أنا وصيته، أنا كل عائلته.

- أنت ما زلت طفلة أمام هذه المسؤولية.

- وهذا لصالحه، سنكون صغيران معاً.

ونظرت إلى غيمة مرت فحجبت الشمس ثم إلى غيمة أخرى فقالت:

- يبدو أنها ستمطر.

- انك تأخذين مسؤولية الصبي بشكل جاد أليس كذلك؟

- جو كالنبتة الغضة. ولكنه تحسن الآن كثيراً، لقد شفي من سعاله.

- هل قلت ان مرضه منذ الولادة؟ لو كان كذلك فلا أتوقع شفاء تاماً.

ورفعت ايمي رأسها لتجد أنهما قد بلغا نهاية الحدائق الخلفية للقصر تقريباً فاسرع للرد على نظرتها المتسائلة:

- سنتبع طرف الخيط، فالصبي يحب الخيل، لذا فسنحاول البحث في الاسطبلات.

- ولكن جو لا يعرف المكان.

- بما أنه يحب الخيل، فلا بد أنه اشتم مكانها. فإما أن يأتي من هنا أو من موقف السيارات في الخارج. إذاً لقد اصلحت السيارة، أرجو ألا ترسلي الفاتورة للدكتور؟.

لقد غير موضوع الحديث فجأة بحيث فوجئت ايمي وقالت:

- اوه، لا، لا أستطيع. لقد كان جول لطيفاً بإعارتي سيارته، وكان قلقاً جداً لأنها لم تصلح وأنا...

وتوقفت فجأة، ولكن متأخرة. ولعنت لسانها المتهور. آخر شيء كانت تريده ان يعرف الدوق بأنه كان مصيباً بكلامه عن جول.

- إذاً لقد اتصل بك كما قلت تماماً.

- لقد اتصل بي لأمر آخر وذكر السيارة.

- دعيني أحزر، لقد دعاك للعشاء ليريح ضميره.

- لقد كان أكثر من طبيب لنا. إنه صديق.

ووصلا إلى باب حديدي في الجدار إلى جانب القصر. ووقف الدوق ويده على مقبض الباب ونظر إليها «يبدو أنك تدافعين عنه. هل لديك خطيب في بلدك؟».

ودهشت ايمي لسؤاله واجابت «لا.. لا يوجد أحد».

وفتح الباب وتركها تدخل قبله إلى باحة رائعة تحتوي على كلا جانبيها اسطبلات للخيول. وكان جو يقف عند الاسطبل الثاني على رؤوس اصابعه ليلمس الحصان.

والتفتت ايمي لتلتقي ابتسامة الدوق الساخرة. وكان ارتياحها كبيراً فاعادت له الابتسامة. وكان جو يقول للحصان:

- أنا آسف لأنني لا أملك قطع سكر لأعطيك ولكن لو كنت لي لأعطيتك المئات منها كل يوم.

- إذاً لكنت قتلته بلطفك.

واستدار جو عند سماع صوت الدوق وابتسم لايمي وصرخ:

- هل اتيت لرؤية الجياد يا ايمي؟

- لا.. كنت افتش عنك. ماذا تفعل هنا؟

- لقد رأيت رجلاً يأخذ حصاناً إلى الاسطبل عندما وصلنا بالسيارة، لذا اتيت إلى هنا عندما كنت تتحدثين مع رئيس المدرسة لألقي نظرة عليه. كنت سأرجع فوراً. لقد نسيت إحضار بعض السكر، وليس معي جزر ولا شيء لاطعمه.

ونظر جو الى الدوق وصرخ:

- لقد رأيتك عند الحداد، لقد كنت قاسياً جداً وحصانك رائع.

- جو! لقد حذرتك من قبل من ابداء الملاحظات الشخصية، اعتذر فوراً!

- أنا آسف سيدي، ولكنك بدوت قاسياً.

ولكن الدوق كان ينظر الى جو، وفمه يرتجف عند الزاويا وسأله وعيناه تلمعان «أتحب أن تركب حصاناً؟».

وامسكت ايمي يده وخاطبت الدوق «شكراً كثيراً لمساعدتك لي. لا يجب أن نشغل وقتك أكثر من هذا».

واتسعت عينا جو إلى آخر مداهما، وبدا كأنه سينفجر من اللهفة وصاح:

ـ الآن؟

وذهب الدوق نحو الاسطبل واحضر سرجاً، ووضعه على الحصان الذي كان جو يلاعبه. ثم حمل جو ووضعه على ظهره واعطاه اللجام.

واحمرت وجنتا جو من الإثارة، وبدت عيناه كنجمتين لامعتين في وجهه الصغير. وصاح: «إيمي! انظري أنا راكب للحصان!» وأخذ الدوق يسير به حول الباحة. وأكمل له دورتين ثم عاد به، حيث رفعه وانزله على قدميه. وقالت إيمي: «اشكر الدوق على كرمه» وقال جو وهو في منتهى السعادة: «شكراً لك يا سيدي» وامسك يد إيمي وعندما أحنت رأسها سألها همساً: «ما اسم الحصان يا إيمي؟» وأجابه الدوق: «دولين» فقال جو: «شكراً لك يا دولين» واحست إيمي أن عينا الحصان لمعتا، واصبحت تواقة لإبعاد جو قبل أن يسبب لها إحراج آخر، فشكرت الدوق ثانية واخذت جو مبتعدة. ولكن كان له قول كلمة أخيرة فقال بصوته الواضح الصغير قبل أن يصبحا بعيدان عن السمع: «أليس الدوق لطيفاً، أليس كريماً؟».

والى أن أوى الى فراشه تلك الليلة لم يكن لديه شيء يتحدث عنه سوى ركوبه حصان الدوق. وسارعت بعد أن نام لتتحضر للخروج مع الدكتور.

وبعد قليل كانت السيارة تسير بهما عبر المنحدرات، وكان الهواء معطراً برائحة الزهور، التي لا يمكن تحديد نوعها، وفجأة استدار عن الطريق الرئيسية ليدخل في طريق أضيق وبعد عدة دقائق كان يقف أمام نزل قديم صغير. وهناك في غرفة عتّقها الزمن ينيرها ضوء خفيف، تمتعا بوجبة لذيذة وشربا القهوة الى جانب نار المدفأة. وكانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف عندما غادرا. وعندما وصلا إلى الفندق، كانت تشعر بالسعادة لقضاء يوم من أسعد أيام حياتها، وشكرته على الأمسية الجميلة...

الفصل الرابع

لم تكن إيمي تتوقع قدوم يوم الاثنين، وبما أنه قدم وأوصلت الصبي الى مدرسته فقد جلست في باحة الفندق تتناول قهوتها. وتحاول التكيف مع يومها دون وجود جو. وأخذت تفكر بالمعلمة السيدة غرونويلد، التي قابلتها في المدرسة وهي معلمة جو. وشعرت إيمي أن هناك شيئاً ما بخصوص تلك المرأة الواثقة من نفسها والتي لم تكن تناسب أبداً شخصية المعلمة.

ـ عفواً يا آنستي.

كان المتكلم السيد برولارد صاحب الفندق الذي شاركها السهر على جو في أحلك ساعات مرضه. وابتسمت له إيمي. كانت تحب هذا الرجل المتواضع، وتابع قوله:

ـ هل تفتقدين جو؟

ووضعت إيمي فنجانها الفارغ وقالت:

ـ أجل.. ولكن لن يدوم هذا طويلاً.. أتمنى أن أجد وظيفة ما قريباً تشغلني.

ـ هل لهذا السبب تبدين قلقة، أم أن السبب هو الصبي الصغير؟.

ـ الأمرين معاً. وهل كان واضحاً عليّ ذلك؟

ـ إذاً انسي أمر جو، سوف يستقر في مدرسته الآن. هذه الوظيفة التي تسعين إليها، هل هي مهمة لك؟

ـ أجل...

وتابعت إخباره حول أملها في التدريس، ولكن يبدو أن ليس هناك وظائف شاغرة الآن. وهز رأسه بعطف عندما انتهت من كلامها.

ـ سوف تناسبك وظيفة السيدة غرونويلد. إنها ليست في الحقيقة معلمة مدرسة. لقد قبلت الوظيفة لتبقى بالقرب من الدوق دو بوليان. فهي تنتمي للارستقراطية الفرنسية وكانت متزوجة من البارون غرونويلد منذ ثلاث سنوات، في نفس الوقت الذي كان فيه الدوق مخطوباً للوسيل داربلي التي قتلت بعد بضعة أشهر بحادثة تزلج، لقد كانت السيدة غرونويلد مجنونة بحب الدوق دائماً، وهناك اشاعات بأنها تزوجت البارون لأن الدوق خطب لوسيل، ويقول الآخرون إنها تزوجت البارون لأجل ماله. لقد توفي منذ سنة تقريباً.

ـ ولكنها بالطبع لم تتزوج البارون لأجل ماله لأنها متحدرة من عائلة غنية؟.

ـ عائلتها فقيرة، ومع أن البارون كان مشهوراً بثرائه، إلا أنه أصبح سكيراً ومقامراً، بعدما تزوجا، ومات وهو مديون.

ـ إنك تسميها السيدة، وهي في الواقع بارونة، وهذا حقها؟

ـ عندما عملت كمدرسة أوضحت أنها تفضل دعوتها بالسيدة غرونويلد.

ـ ولكن كان بإمكانها تأمين عمل أفضل من مدرّسة في مدرسة قرية؟

ـ ليس هناك وظيفة أفضل تجعلها قريبة من أعتاب الدوق.

ـ فهمت ماذا تعني. . .

بعد الغداء، كتبت إيمي طلبين لوظيفتي تدريس شاهدت اعلاناتها في الجريدة، ولكنهما كانا بعيدين عن تريون. ولو كانت محظوظة بالحصول على واحدة منهما فستضطر لاستئجار شخص يأتي بجو من المدرسة.

كان أمامها أكثر من ساعة على موعد ذهابها إلى جو، لذا أخذت كتاباً معها لتمضية الوقت على السفوح وهي تقرأ، ووجدت مكانها المفضل في الشمس أمام منظر جميل يحيط بالتلال، والمدرّسة في

الأسفل، فجلست هناك. ولم تكن في مزاج للقراءة، فأخذت تستعيد محادثتها مع السيد برولارد، وكم ستكون دهشة السيدة برولارد عندما تعلم أن زوجها قد تحادث مع ضيف عندهما حول بعض الإشاعات سعادتها جعلت إيمي تشعر بالوحدة. فقد بلغا أعلى درجات الإخلاص معاً، بنوع من الحب نما وتعمق مع السنوات.

ذلك المساء، تأخر جو في الذهاب الى الفراش لأن لديه الكثير ليقوله لإيمي حول مدسته الجديدة، وعن معلمته اللطيفة، وشعرت بالراحة لأنها عرفت أنه سيستقر في محيطه الجديد بسعادة، واستمعت اليه بصبر، وفي النهاية غلبه النوم. وتركته إيمي سعيدة لأنها تستطيع أخيراً أن تبدأ في البحث عن عمل لها.

تلك الأمسية جلست إيمي لتناول العشاء، وهي تفكر بوحدتها، واثناء تناول القهوة سمعت صوت سيارة تقف وبابها يقفل. وفي اللحظة التالية، دخل الدوق إلى الباحة ثم إلى الفندق وهو يرتدي ثياب السهرة. وتساءلت ماذا أتى به إلى هنا، في وقت هي واثقة بأنه يقضيه بتناول العشاء في قصره أو خارجه مع اصدقائه. ومن حسن حظها أنه لم يلاحظها تجلس إلى تلك الطاولة الصغيرة في زاوية الباحة البعيدة. وقررت أن تنتظر هناك إلى أن يذهب قبل أن تتحرك من زاويتها. واحتست آخر جرعة من القهوة، وأخذت تستمع إلى عندليب في غابة مجاورة، يثير مشاعرها بألحانه الجميلة. وأغمضت عينيها لتستغرق في سماع هذه المعزوفة الموسيقية الرائعة. وبعد تأنٍ، خرق الصمت من حولها صوت خطوات قاسية ثابتة، فخفق قلبها، وفتحت عيناها لترى الدوق واقفاً عند الطاولة.

ـ مساء الخير آنسة ليستر، هل تتمتعين بأغنية الطير. هل ذهب كل السامعين، ألاحظ أنك لا زلت هنا. هل أزعجك؟ سامحيني على تطفلي، ولكن هل تنتظرين أحداً؟

كان ينظر إلى عينيها، ولكن الانطباع على وجهه كان كمن ينظر إلى شيء آخر.

ـ لا . . لا انتظر أحداً. كنت أستمع للأصوات الرائعة لهذه الليلة الجميلة.

ـ لن أؤخرك أكثر من لحظة.

وراقبته إيمي وهو يجلس في المقعد المقابل لها حول الطاولة وابتسم لها ابتسامة ساحرة وهو يستقر في مقعده.

ـ آنسة لليستر، يعتقد السيد برولارد أن بإمكانك مساعدتي، فقد كنت في الخارج عند المنحدرات بعد ظهر اليوم، أليس كذلك؟

ـ أجل. . كنت هناك.

ـ ألم تري تلميذ مدرسة أشقر في العاشرة من عمره أثناء وجودك هناك؟ يلبس كنزة بيضاء وبنطلوناً أسود؟

وتذكرت إيمي أنها رأته بعد ظهر ذلك اليوم وهو يهرب منها، وقررت أن تستمع إلى مزيد من التفاصيل قبل أن تقول إنها رأته.

ـ ولماذا؟ هل هو مفقود؟

ـ ميل لم يذهب هذا اليوم الى المدرسة، ولم يمض إلى المنزل لتناول طعامه. مدبرة منزلي انتظرت إلى أن انهيت عشائي قبل أن تبلغني. يبدو أنه كان يتأخر في الخارج قبل الآن، ولكنه لم يتأخر هكذا من قبل.

وترددت إيمي، لو أن الصبي كان في ورطة ما، فلماذا تسلمه؟ من ناحية أخرى الهروب لن يفيده، والتجول في التلال خطر في الظلام فقد يقع ويموت، واعترفت بعد تردد بأنها رأته وروت ما شاهدت. واستمع إليها بانتباه. وقال لها بعد أن انهت كلامها:

ـ وهل تستطيعين أن تأخذيني إلى المكان الذي اختفى فيه؟

ـ أجل.

ـ إذاً هيا بنا. ولكن ارتدي أولاً ملابس مناسبة وحذاء مناسباً، فهواء الجبل بارد.

كانت السيارة تقف أمام الفندق، وفتح لها الباب الخلفي لتدخل، ثم جلس في مقعد السائق وأغلق الباب، وشعرت إيمي برائحة عطر

معين تشتمه للمرة الثانية ذلك اليوم، فقد كانت السيدة غرونويلد تجلس الى جانبه في المقعد الأمامي.

ـ أعتقد أنكما تعرفان بعضكما.

وقالت السيدة: «لقد التقينا هذا الصباح في المدرسة».

ـ لقد رأت الآنسة ليستر ميل بعد ظهر هذا اليوم يا سيمون، ستدلنا إلى مكان وجوده.

وقالت سيمون بصوت ناعم «هل من الضروري أن نأخذ معنا الآنسة ليستر يا برول؟ قد يكون لديها ارتباطات أخرى. كان بإمكانها أن تصف المكان لنا؟»

ـ يا عزيزتي سيمون، الآنسة ليستر لا تعرف تلك المنحدرات جيداً، والعديد من الممرات يبدو متشابهاً أمام نظر الغريب. أفضل لنا أن نحضرها معنا قبل حلول الظلام، فكلما وجدنا ميل أسرع كان أفضل.

ـ لا أعلم لماذا تزعج نفسك به. إنه ممل ووقح، ولا يحتمل في المدرسة، لقد كان السيد تريغون يقول لي. . .

ـ السيد تريغون، كاستاذ له يجب أن لا يتحدث بقصص وهمية عن المدرسة، ما فعله كان غير هام. فالصبي يمر في ظرف سيء، ويحتاج إلى المساعدة، وليس للنقد، إنه ليس ولداً سيئاً.

وكان الدوق يتكلم بهدوء ولكن بغضب، وسارت بهم السيارة بسرعة، واخذت سيمون علبة سجائر وعرضت واحدة على إيمي، ولكنها رفضت، فأشعلت واحدة ووضعتها بين شفتي الدوق واشعلت أخرى لها.

بالنسبة لإيمي هذا الفعل كان يغني عن الكلمات، فهو يظهر عمق الود بين الاثنين، وكان القمر لا يزال يعلو في السماء، والسيارة تصعد، والى يسارها شاهدت القصر، ومالت الى الأمام لتحدق بالطريق، وقد لاحظت كيف تختلف المنطقة هناك في الضوء الخفيف، وكان الدوق يسير ببطء منتظراً تعليماتها، وشاهدت إيمي الشجرة القديمة، وكوخ

الراعي ثم الجسر فوق الساقية على يسارها وقالت: «إلى الأمام مباشرة هناك بوابة مزرعة أوقفت السيارة داخلها» ودخل الدوق الى المكان الذي أشارت إليه وأوقف المحرك وأخرج السيجارة من بين شفتيه وأطفأها، وقال: «هل أنت متأكدة من المكان؟»

- متأكدة، لنخرج ونقطع الحقل.

- الأفضل أن تبقي في السيارة سيمون. فأنت غير مستعدة للمشي على العشب والأرض الصخرية، هل المكان بعيد آنسة ليستر؟

- عبر حقلين بينهما غابة.

واستدار الدوق بعد أن خرج من السيارة، ليساعد إيمي على النزول وتركها تسير أمامه ثم تبعها، واتجها نحو الغابة، وأحسّت بأصابعه تمسك بكوعها بخفة، وبالتدريج بدأ سحر وجوده معها يسري فيها بينما ظلال المساء بدأت تشتد من حولهما.

الغابة التي كانا يقطعانها كانت صغيرة، وبالتدريج بدأت الأشجار تقل، وبرزت أمامهما من بعيد الصخور في نهاية الحقل فقال:

- أعتقد أننا نتجه الآن إلى المكان الذي اختفى فيه ميل أليس كذلك؟

وهزت إيمي رأسها وقادته الى الصخور على حافة المنحدر وقال لها:

- انتبهي الآن، قد تصابين بالدوار.

ولكن إذا أصيبت إيمي بالدوار فلن يكون الارتفاع هو السبب، بل هو رد فعل على قربه منها وواقع أنه يقف خلفها يمسك بذراعيها من فوق بقوة وثبات، وأمال رأسه لينظر من فوق كتفها إلى المنحدر وقال:

- أترين ذلك المنبسط الصخري تحتنا مباشرة، هو فوق مدخل العديد من المغاور التي تنتشر هنا. كان المهربون يستخدمونها منذ سنوات، وهي المكان الذي يختبىء فيه بالتأكيد.

- وهل تظن ميل مختبئاً هناك؟

- أنا متأكد، لهذا أردت معرفة المكان بالضبط، فقد يستمر بحثنا أياماً، أعطني يدك.

وهبطا ويدها في قبضته القوية، وسادت لحظات صمت رهيبة عندما وصلا إلى المنبسط الصخري، ومشى أمامها وقد الصقها به. وعندما دخلا المغارة، وبعد المدخل مباشرة، التقط الدوق شيئاً وصاح: «ميل؟» ولم يجبه سوى صدى صوته «ميل، أعلم أنك هنا، لقد وجدت كتابك، أخرج وواجه مشاكلك كرجل. إذا لم تخرج قبل أن أذهب، سازهق روحك» ورمى الكتاب وأمسك بذراع إيمي وقال: «هيا بنا، سيتبعنا ميل بعد قليل».

- ولكن ألن ناخذه معنا؟ لن نتركه يأتي لوحده؟ هذا ليس عدلاً!

وتجاهل كلامها وساعدها على الصعود بصمت صخري، وبعد أن وصلا الى القمة قال:

- ميل ولد وترعرع هنا في هذه التلال وهو يعرفها كراحة يده، إنه ماهر كمعزى الجبال البرية، وتركه يعود وحده أفضل له من الإذلال أمام سيدتين جميلتين.

وسارت إيمي بجانبه عبر الحقل، وقد ادركت أنه يفعل الشيء الأفضل إنسانياً وسألته سيمون: «هل وجدته؟» وانتظر برهة ويده على المفتاح «سيلحق بنا» وابتسمت رفيقته برضى «هذا جيد، لا يزال أمامنا ساعة نقضيها حسب ما خططناه بعد أن نوصل الآنسة ليستر إلى الفندق».

وأدار محرك السيارة ثم استدار بها ليواجه الطريق الذي قدموا منه، وكان الظلام يهبط بينما كانوا يتجهون إلى الفندق، ولكن سيمون لاحظت أن السيارة انعطفت بإتجاه شاتو دي فلور بدلاً من إكمال الطريق نحو القرية ثم الفندق. وصرخت:

- ولكن برول، لم أنت ذاهب الى القصر؟ هناك وقت طويل أمامنا للذهاب عند آل بونر، فهم لا يتوقعون قدومنا قبل العشاء.

- يا عزيزتي سيمون، ميل لم يحضر بعد، وأنا أريد أن أكون هناك عندما يصل. أما بالنسبة للسهرة فقد اتصلت بآل بونر فور انتهائي من

العشاء وبعد أن عرفت أن ميل مفقود واعتذرت. أستطيع أن أوصلك إلى هناك لوحدك وأعود الى القصر.

وخفف سرعة السيارة واستدار إليها بسرعة وقال: «حسناً؟ وما رأيك؟».

ـ أنت تعلم أنني لا أحبذ فكرة الذهاب بدونك، ولكنني بصراحة لا أعلم لماذا تعتقد أن الآنسة ليستر قد تتخلى عن سهرتها للذهاب معنا إلى القصر، فربما يكون لديها موعد مع الدكتور.

ودخلت السيارة بين دفتي بوابة القصر وتوقفت عند المدخل الرئيس. وساعد الدوق السيدتين، ثم سار بينهما، ليحيي الخادم الذي فتح الباب، وقال الدوق: «اترك الباب مفتوحاً يا ساشا، ميل قادم».

ودخل بهما إلى الصالون، وأحضر الخادم بعض الشراب وقدمه لهم، ورفع الدوق كأسه وقال: «اشكرك آنسة ليستر، لقد وفرت عليّ ساعات من البحث عن الوغد ميل. أهلاً بك في زيارتك لبلدنا الجميل.».

وقالت سيمون: «لا بد أنك تجدين اختلافاً عن أضواء لندن اللامعة آنسة ليستر، ومن الواضح أنك متعلقة بابن أخيك، لتتخلي عن كل شيء من أجله».

ـ أجل، أنا متعلقة به جداً، آمل أنه كان حسن السلوك في يومه الأول؟

ـ بشكل رائع، ولكن كل شيء جديد عليه، وما من شك أنه سيصبح شريراً كباقي التلاميذ بعد أن يستقر.

ـ لا أعرف إذا كان شريراً، ولكن أرجو أن تبلغيني إذا أساء التصرف، عادة هو مطيع وأخلاقه جيدة، ولم يسبب لي أي إزعاج، وأنا واثقة أنه لن يزعجك يا سيدتي.

فإبتسمت سيمون وقالت: «من السهل أن يؤخذ على أنه أخوك أو ابنك، أعني أنه يشبهك».

وقال الدوق بثبات: «الآنسة ليستر لا تشبه ابن أخيها أبداً، فالفتى أشقر وعيناه زرقاوان، بينما شعرها أحمر وعيناها بنيتين ذهبيتين».

ونظر إلى عيني إيمي وقال: «بالتأكيد بنيتين بلون الذهب».

وشعرت إيمي بالراحة عندما دخل ساشا ليقول إن ميل وصل، واعتذر الدوق فوراً وترك الغرفة، وعندما عاد نظر إلى إيمي بابتسامة ساحرة وقال:

ـ حسناً آنسة ليستر، يمكن لبالك أن يرتاح بالنسبة لميل، فلم اضعه في الأصفاد وهو الآن يتناول عشاءه قبل ذهابه للنوم. سأترك لرئيس المدرسة أن يتعامل معه.

وشعرت إيمي أن الوقت قد حان لعودتها فقالت: «في الحقيقة يجب أن أذهب». ونهضت لتقف على رجليها واقتربت من الدوق «جو يشعر بالإثارة من يومه الأول في المدرسة، وربما يستيقظ ولا يجد أحداً قربه».

وهز الدوق رأسه وقال: «إخلاصك لابن أخيك يعطيك فخراً يا آنسة ليستر». وابتسمت له والتفتت إلى سيمون وقالت: «تصبحين على خير سيدة غرونويل». وسار معها الدوق إلى المدخل «آسف لأنك ستغادرينا باكراً، سيوصلك ساشا» وكان الخادم قد أسرع الى السيارة وفتح بابها، وتابع الدوق كلامه «تصبحين على خير آنسة ليستر وشكراً لك على رفقتك وعلى مساعدتك».

تلك الليلة، ظلت مستيقظة بينما كانت تفكر بأحداث تلك الليلة، لا بد أن السيدة غرونويلد تسعى لاهثة وراء الدوق. ولهذا السبب يجب على إيمي أن تكون حذرة بأن لا تكون ودية مع الدوق. فقد تنتقم الفرنسية من جو. كان تفكير وضيع ولكنه ممكن. وغطت في النوم وهي تفكر كيف تبقى بعيداً عن طريق الدوق في المستقبل.

الفصل الخامس

كانت أيام السبت والأحد تعني لأيمي وجو قضاء يومهما في الخارج إذا سمح الطقس بذلك. مساء يوم الجمعة هطل المطر بغزارة، ولكن صباح السبت كان مشرقاً، وتناولا الفطور في الباحة تحت سماء زرقاء واعدة بيوم جميل. العشب في الحقول كان رطباً، لذا ذهبا إلى القرية ليجوبا المحلات. وأمضيا ساعات يتفرجان على واجهات المحلات، ثم تناولا الغداء على تراس يشرف على القمم المكسوة بالثلج، ثم ركبا بعدها العربة الكهربائية التي أوصلتهما إلى القمة. وانتهى يومهما الجميل بسرعة مذهلة.

عندما عادا إلى الفندق، دهشت ايمي، لرؤية جول يجلس إلى طاولتها وقت العشاء.

ـ مساء الخير يا ايمي.

ونهض من مقعده يحييها ويمسك لها الكرسي لتجلس قائلاً:

ـ أرجو أن لا تمانعي بمشاركتك طاولتك. بعد وفاة زوجتي اعتدت على تناول العشاء في الخارج. كيف تقضين أيامك؟ وكيف يقضي جو أيامه في المدرسة؟

وأخبرته ايمي كل شيء، ما عدا ما حصل معها ومع الدوق. وأنت هيلغا بالعشاء، وسرت ايمي لوجود شخص تتحدث معه. وعلمت أن جول لديه تذكرتين لحضور حفلة موسيقية ذلك المساء. وطلب من

ايمي مرافقته لحضورها. ثم سألها وهما يتجهان إلى مكان الحفلة الموسيقية:

ـ هل بلغك أي شيء ايجابي حول الوظيفة؟ أنت ترغبين ولا شك بوظيفة محلية؟

ـ أجل.. يجب أن أفكر بالأمر جدياً الآن بعد استقرار جو في المدرسة.

ـ هل فكرت يوماً بالزواج؟ سيحل هذا مشاكلك.

ـ طبعاً فكرت بالزواج. ولكن حياة جو تأتي في المركز الأول. لقد كرست السنتين القادمين له.

ـ وبعد ذلك؟

وأحست ايمي أن هناك غاية وراء سؤاله. وتمنت أن لا يحاول طلب الزواج منها. فهي لا تريد أن يدخل في حياة جو أية اثارة بعد. فالسعادة تأتي مع الصحة وهي مصممة أن يحصل عليهما معاً. وهزت كتفيها قائلة «أرفض أن أبحث الآن أمر المستقبل».

وأمضيا أمسيتهما في سماع الحفلة الموسيقية بهدوء. وعندما عادت إلى غرفتها، تستعد للنوم، شعرت بالبؤس والقلق، فجلست إلى طاولة الزينة، وهي تمشط شعرها، ونظرت إلى وجهها في المرآة ملاحظة أن صحتها تحسنت منذ وصولها إلى هنا. وأكملت تمشيط شعرها إلى الوراء، وذهبت إلى الفراش.

صباح الأحد خرجت مع جو إلى إحدى الغابات الجميلة لقضاء النهار. كان هناك ثلاثة أطفال انضم إليهم جو للّعب. وكانت مربيتهم تجلس على مسافة قريبة من ايمي وهي مستغرقة في الكتابة. وأخرجت ايمي كتابها وغرقت في القراءة. وبعد وقت قصير افتقدت أصوات الأطفال، وتطلعت لتجد أن جو قادم نحوها والأطفال ومربيتهم ذهبوا.

وصبت لجو كوباً من الليموناده شربه بعطش دون توقف.

ـ يا إلهي أنت عطشان، سأحضر منشفة من السيارة وسنغسل ايدينا في الساقية قبل تناول الشاي.

وعندما اقتربا من الساقية، أسرع جو أمامها فنادته قائلة «انتبه الآن» وفي اللحظة التالية اصابها الهلع، لأنها رأت جو وقد زلت به القدم وسقط في الماء. وصرخت بأعلى صوتها باسمه، وقفزت كالمجنونة خلفه، ومدت يدها لتلتقطه، ولكنه غاص في مياه عميقة أكثر. واسرعت إلى الأمام أكثر وهي يائسة واستطاعت أن تلتقط كنزته، ثم، وبقوة مجنونة، قاومت التيار والقته إلى حافة الساقية. ثقل الماء على ثيابهما منع التيار أن يجرفهما، ولكنها عندما أفلتت جو على الحافة جرفها التيار ثانية قبل أن تستطيع الخروج من الماء، ولكن التفكير بجو مستلق على الأرض غائباً عن الوعي جعل أطرافها المنهكة تعود إلى العمل ثانية. وكافحت بكل ما تبقى من قواها، وأمسكت أحد الأغصان المتدلية فوقها. وأخذت تجر نفسها بجهد إلى أن وصلت إلى الضفة. وخرجت بعد جهد لتقف على رجليها مقطوعة الأنفاس، وثيابها ملتصقة بجسدها تنظر إلى المكان الذي تركت فيه جو على ضفة الساقية. ولكن جو لم يكن مستلقياً هناك وحده كما تصورت، بل كان هناك شخص ينحني فوقه ويعمل بتصميم على إعادته إلى الوعي. ودون وعي منها تنفست باسم الدوق «برول؟» ثم اندفعت إلى الأمام، وفي كل خطوة صلاة من أجل جو، وأغمضت عينيها وهي تتقدم، وبعدما بدا لها وكأنه دهر أمسك الدوق بذراعها. وشاهدت وجهه شاحباً بغرابة، وجبهته مليئة بالعرق، وأسرع يطمئنها.

ـ كل شيء على ما يرام.. جو بخير. ستخبرينني بما حدث لاحقاً.

وللحظات، أمسك بها يدفعها وهي تسير متكئة عليه بإرهاق، غير قادرة على الكلام. واستمرت تذكر نفسها بأن جو سيكون بخير، ثم قالت وهي ترتجف بعنف «شكراً لك! اوه شكراً لك».

ـ لا تشكريني.. أنت من أنقذته وليس أنا. والآن اخلعي ثيابك المبللة بسرعة معي غطاء في السيارة.

وابتلعت ريقها بصعوبة وهي تمنع الدموع من الهطول.

ـ لدي غطاء في السيارة. ومعي ثياب سباحة وثياب لجو.

وبينما كانت ترتدي ثوب السباحة في سيارتها، كان الدوق يجفف جسم جو ويلبسه ثيابه، ويلفه بغطاء السيارة ويضعه في مقعد السيارة الخلفي. ووضعت ايمي الغطاء الآخر من حولها، وجلست إلى جانب الدوق في سيارته، وفي يدها كوب قهوة من إناء القهوة الذي جلبته معها، وأعطى الدوق لجو بعضاً من القهوة الساخنة، وتركه لينام. وشعرت ايمي بالدفء من جراء القهوة الساخنة، وقالت للدوق:

ـ لا أعلم كيف استطعت الوصول إلى جو بهذه السرعة. ولكنني أشكر السماء لأنك كنت هنا. سأكون ممتنة لك لبقية عمري.

ـ لقد سمعتك تصرخين عندما كنت ماراً من هنا. وتوقفت وعندما سمعتك تصرخين ثانية أسرعت لأعرف ما هي مشكلتك. ووجدت الصبي مغمى عليه على ضفة الساقية، واعتقدت أنك ذهبت لطلب المساعدة. لم أكن أعرف أنك ما زلت في الماء. واستعاد الصبي وعيه لأنك لحسن الحظ ألقيته على معدته، مما ساعده على إخراج الماء من رئتيه.

وتطلعت ايمي إليه، وهي تعتقد أنه لا يبدو وكأنه نفسه. وعندها شاهدت أن بذلته مبللة، حيث اتكأت عليه:

ـ بذلتك مبللة.. كم أنا آسفة.

ـ إنسي الأمر. المهم أنك والصبي بخير. الأفضل أن أعيدك إلى الفندق. فقد تلقيت صدمة وأنت بحاجة إلى الراحة.

ـ أرجوك عد إلى منزلك وغير ثيابك. فقد استعدت نشاطي وأستطيع قيادة سيارتي بنفسي. فلم أبلل ثيابك فقط بل أخرتك.

ـ توقفي عن القلق عليّ. فأنا بخير تماماً.

وأحست بتغير مزاجه، وتساءلت عما سبّب هذا. ها قد عادت ثانية إلى مركزها وهو في مركز أعلى بعيد عن متناولها.

وسارا بالسيارة إلى الأمام وقال باختصار:

ـ ساشا سيحضر لك سيارتك. وسنفعل ما أقوله لك. سأخبر

السيدة برولارد عن ضرورة بقائكما في الفراش لذا أرجوك، لا تقولي أية كلمة.

وسارت السيارة بهما وهي صامتة، وأخذت بين الفينة والفينة تنظر إلى المقعد الخلفي لتطمئن على جو، وبدا لها ما حدث وكأنه كابوس. وبدأ رد الفعل ببطء يتجمع على شكل دموع في عينيها. ونظر إليها الدوق قائلاً بلطف:

- هل أنت بخير؟

- أجل شكراً لك.

- هل تشعرين بألم في مكان ما؟ ألم تصطدمي بالصخور؟

- لا.

- أنت أنقذت الصبي... والآن إنسي الأمر؟

وفي لحظات كانوا قد وصلوا إلى الفندق، وحضرت السيدة فوراً وكأنها أحست أن هناك شيئاً ما. وقال لها الدوق وهو يغادر مقعده:

- الآنسة ليستر وابن شقيقها حصلت لهم حادثة، اوه سيد برولارد، أرجوك احمل الصبي إلى غرفته، وسأحضر أنا الآنسة ليستر.

ولم تستطع ايمي الاحتجاج، فقد أخبرتها نظراته أنه سيفعل ما يريد وتمنت أن لا يكون هناك أحد وهو يأخذها إلى غرفتها، ولكنها نسيت أن تتطلع حولها بعدما شعرت بدفء ذراعيه تلتفان حولها، وتشعل في داخلها الحرارة. وبقيت معها هذه الشعلة طويلاً بعد ذهاب الدوق. ولم تدر كم نامت، فعندما استفاقت كانت الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي، لتجد أن السيدة برولارد قد دخلت الغرفة.

- اوه يا صغيرتي.. لقد استفقت إذاً، لديك خطوط سوداء تحت عينيك، إذاً لم ترتاحي بنومك هذه الليلة؟

وجلست ايمي في فراشها «أنا آسفة لم أعلم كم الوقت. يجب أن أذهب لرؤية جو» وربتت السيدة على يدها وقالت «جو نائم، لقد أعطيناه بعض الطعام ومسكن. وأظن انه يجب أن تفعلي الشيء نفسه ستحضر لك هيلغا طعاماً خفيفاً».

- ولكن لا أستطيع البقاء في السرير وانت تسهرين عليّ. لم أسبب لكم سوى الإزعاج منذ قدومي إلى هنا.

- لا تقولي هذا، الحوادث لا يمكن منعها، لن يستغرق الأمر سوى يوم واحد، وهيلغا تحب العناية بكما، وكلنا كذلك.

وبدت للحظة وكأنها عابسة، ثم ابتسمت ولوحت لها باصبعها

- لا تنسي أنك بالفراش حسب أوامر الطبيب، والسيد الدوق قد أرسل لك باقة أزهار عظيمة وسلة من الفاكهة.

- إنه لطيف جداً. لقد أنقذ حياة جو. ولن أنسى هذا أبداً.

- هل حدث هذا حقاً؟ لم يقل هذا. هل كان معك عندما حدث الحادث؟

واحمر وجه ايمي تحت وقع نظرة السيدة، وأخذت تشرح لها ما حدث. وعندما انتهت هزت السيدة رأسها وقالت:

- لقد أرسل القدر الدوق إلى هناك. فسواقي الجبال خطرة في هذا الوقت من السنة. إذ تكون مندفعة بفعل ذوبان الثلج من الجبال.

ونهضت على قدميها عندما دخلت هيلغا حاملة صينية مغطاة وقالت:

- سأتركك تتمتعين بطعامك. حاولي أن تأكلي ولا تقلقي، استريحي فقط.

بعد تناولها الطعام برفقة جو، نظرت إلى الزهور التي أرسلها لها الدوق وكانت هيلغا قد رتبتها في مزهرية جميلة، وكان مع باقة الزهور بطاقة كتب عليها الدوق:

«عزيزتي الآنسة ليستر، أتمنى أن تتحسن صحتك قريباً، وأن لا يكون هناك أي أثر سيء للحادثة المؤسفة. لم يكن لديّ فرصة لأبلغك أنني سأسافر ابتداءً من اليوم. سأشعر براحة أكبر لو أنك بدأت بتعليم ابن أخيك السباحة. هناك بركة ساخنة في القصر، وسيكون من دواعي سروري إذا استخدمتيها. لماذا لا تأخذينه إلى هناك بعد المدرسة كل يوم

عندما يكون الطقس دافئاً؟ وأثناء هذا ابتعدي عن مصادر الأذى واعتني بنفسك . . . برول بوفي».

صباح الثلاثاء أوصلت ايمي جو إلى المدرسة وعادت إلى الفندق مسلحة بالجريدة اليومية تبحث عن عمل شاغر. واقتربت منها مدام برولارد وجلست قربها وهي تقول:

- آه. . . آنسة ليستر، هل أوصلت جو إلى المدرسة؟

- أجل شكراً لك. . . شكراً لكم جميعاً على رعايتكم الحنونة. لن أستطيع أبداً أن أرد لكم الجميل لما فعلتموه لأجلنا.

فمالت السيدة إلى الأمام وقالت:

- انتبهي آنسة ليستر، هذه كلمات قد أجبرك على الوفاء بها. أترين، الصيف قد بدأ، وسيأتي لنا بالتدفق العادي للسواح، عادة أتعاقد مع من يساعدنا من القرية، ولكنني بحاجة إلى موظفة استقبال. شخص مثلك لطيف ورقيق يستطيع مساعدة الضيوف ليشعروا وكأنهم في بيوتهم.

وكانت السيدة تنظر اليها بأمل، وحدقت بها ايمي، متسائلة إذا ما كانت تسمع بشكل صحيح، وقالت بسرور ظاهر:

- أنت. . . تعنين. . . أنك تعرضين عليّ الوظيفة، سيدة برولارد؟

- إنه اقتراح فقط، أنا والسيد برولارد تباحثنا بالأمر منذ مدة، ولكننا ترددنا بعرضه عليك في حال كنت راغبة بنوع آخر من العمل.

وحاولت ايمي استيعاب ما تسمع. ها هنا أمامها وظيفة حاضرة توضع بين يديها، مع فرصة البقاء مع جو في حال أنه احتاجها، إنها هدية من السماء ومع ذلك وجدت نفسها مترددة.

- ولكن يا سيدة برولارد، لم أهتم بهذا النوع من العمل من قبل، ولا أعرف الطباعة، وبالتأكيد من الأفضل لكم أن توظفوا شخصاً خبيراً؟

- انظري. . إذا كنت قلقة بالنسبة للطباعة فامامك فرصة لتتعلمي

ساعة أو ساعتين عندما لا تكون مشغولين. هل تحبين أن تفكري بالأمر؟

وقاومت ايمي الاسراع الفجائي لدموعها. اوه. . . أخيراً الراحة!

- سيدة برولارد، ايتها العزيزة. . لا حاجة لي للتفكير. أقبل بكل سرور. وآمل فقط أن لا أخيب املكم، لو أنك تعلمين ما يعني هذا لي. . . أن أقول لجو انني سأكون هنا دوماً، وليس في مكان بعيد وهو في المدرسة.

وقالت السيدة «سيتناقش معك السيد حول الأجر وساعات العمل» وضحكت ايمي وقالت «لا أستطيع التصديق!»

- لا تتحمسي كثيراً قبل أن تحصلي على الوظيفة وتجربيها. بعض الأحيان تكون مرهقة، والساعات طويلة. ولكننا لن نقسو عليك. سيكون لديك الوقت لتأتي بالصغير من المدرسة، وأن تخرجي معه قبل تناول الشاي، من الثالثة والنصف حتى الخامسة والنصف.

وشهقت ايمي بالفرح. «سيكون هذا رائعاً، أترين، عليّ أن أخذ جو لأعلمه السباحة، والساعتين ستوفران لنا الوقت اللازم، شكراً لك سيدة برولارد» وغادرتها السيدة بعد أن تناولا القهوة.

منذ تلقيها دعوة الدوق لاستخدام بركة السباحة في قصره، فكرت ايمي أنه لا بد قد أبلغ موظفيه بأنها قادمة، وهذا قد يفيد جو، ففي بركة خاصة ودون وجود أحد ليزعجها، سيتعود بلطف على الماء، وسيفيد التمرين عضلات صدره. وهكذا، قبل أن تذهب لتحضره من المدرسة، نزلت إلى القرية واشترت له ثوب سباحة، وعوامات، وقبعة سباحة.

عندما بلغا القصر، بعد ظهر ذلك اليوم، أوقفت السيارة، وهي تشعر بأنها دخيلة، ولكن عندما خرجت من السيارة، وسارت في الممر المرصوف باتجاه الباب مع جو، بدأت تشعر بالالفة أكثر. واستطاع جو الوصول إلى مسكة الجرس القديمة الطراز وشدها، وأقبل ساشا،

وحياهما بأدب ولكنه خرج ليأخذهما من أمام المبنى عبر بوابة حديدية في الجدار إلى فناء وراءه.

وشاهدت ايمي مزهريات ضخمة من الآجر مليئة بالزهور والشتول موضوعة على أرض فخارية جميلة، وهناك في الوسط مثل جوهرة زرقاء لامعة كانت بركة السباحة. حوافيها المائلة بنيت لتناسب الكراسي. وكراسي النوم والطاولات. وكان هناك غرف لتبديل الملابس بنيت على بعد من البركة خلف منصة القفز، حيث قادهما ساشا.

لم يتجاوب جو كثيراً مع فكرة تعليمه السباحة، ولكن ايمي شرحت له كم سيساعده هذا لو وقع في الماء ثانية.

ـ عندما تتعلم السباحة يا صغيري، سوف نشتري طابة ضخمة، ونذهب لنمرح في الماء.

وربطت له العوامات على ذراعيه لتعطيه الثقة بنفسه، ودخلت وإياه من الناحية الضحلة من البركة، لتساعده على الإمساك بحافة البركة والعوم في الماء. ثم تركته يلعب، وسبحت عبر البركة ذهاباً وإياباً.

وعندما غادرا البركة، كانت ايمي راضية عن تجاوبه. فلم يظهر أي خوف من الماء، بل تمتع به، وجففته جيداً، ثم ألبسته كنزته، وبنطلونه الصوفي، واعطته تفاحة وذهبت لتغير ثيابها.

وعندما غادرا غرف الملابس دهشا لرؤية ساشا وقد وضع لهما طاولة لتناول الشاي والحلوى قرب البركة. وقال بكل أدب:

ـ لك وللصغير آنسة ليستر. لقد أصر سيدي الدوق على ان تتناولا بعض المرطبات بعد حمامكما.

اللعب في الماء جعلهما يشعران بالجوع، وحدق جو بالمشهيات أمامه، ثم عاد ساشا أثناء تناولهما الوجبة، ببعض الاطعمة الخفيفة الأخرى، إلا أن ايمي أكدت له أنهما تناولا ما يكفي. وعلمت ان جو سيكون متشوقاً كثيراً للعودة الى هنا.

الفصل السادس

في الصباح التالي، وبعد ان اوصلت جو الى المدرسة، كانت ايمي تقف وراء طاولة الاستقبال في الفندق لتبدأ عملها. من حيث كانت تقف كان أمامها منظر شامل لمدخل الفندق والسلالم، في مواجهة المدخل الرئيس. من وراء المنصدة العالية وتحت اللوحة على الجدار التي تنتشر عليها مفاتيح الغرف كانت طاولتها وعليها آلة طباعة. إنه عالم جديد لها ستتمتع به. ومشاكلها يبدو انها قد أصبحت عند نهايتها.

وعادت بعد تناولها غداءها باكراً لترى عدة زبائن دائمين يصلون للانضمام إلى ضيوف الفندق في غرفة الطعام. ولم يكن فندق لاشاست فاخراً كما الفندقين الآخرين في تلك الساحة، ولكنه كان شعبياً، لتناول الطعام وغرف العشاء في داخله وخارجه كانت دوماً مشغولة. وكانت الباحة أمام الفندق مليئة. كان عدة أزواج يتقدمون لتناول الغداء في الغرف الداخلية. ولدهشتها رأت السيدة غرونويلد تدخل برفقة أحدهم.

وقالت السيدة برولارد التي كانت تجلس مكان ايمي أثناء تناولها الغداء:

ـ هكذا إذاً: لدى السيدة غرونويلد رسن آخر مشدود إلى ذراعها. وشخص مهم أيضاً. إنه الهر برندت فيترز، الصناعي الثري من «برن».

ويدا لايمي أن مرافق سيمون الرمادي الشعر لا يبدو أقل بيوم واحد عن الستين من عمره. وتساءلت عما إذا كان في نية الفرنسية بأن تلعب على رجل ضد الآخر. وتنهدت ثم تابعت عملها، باقتناع ثابت بأن الدوق لن ينخدع بسهولة.

واستمرت في اليومين التاليين في أخذ جو إلى بركة السباحة في القصر، حيث تمتعت فعلاً، بسباحتها في الماء. وعند ثالث زيارة لهما، وصلا ليجدا أنه قد سبقهما شخص آخر يجلس إلى جانب البركة ويرتدي ملابس السباحة. وكان ميل الموضوع تحت وصاية الدوق. وتجاهلهما تماماً، وأخذ يحدق ضجراً في الماء، وعلى وجهه تعبير بشع. وأخذت ايمي جو إلى غرف الملابس وقال لها جو «هذا ميل، إنه من مدرستنا، في صف الاولاد الكبار. لماذا لم يتكلم معنا؟»

وعندما عادا إلى البركة كان ميل داخل الماء، في الناحية الأخرى من البركة يسبح. وخلال درس السباحة لجو، كان يحدق بهما، وجوانب فمه ملتوية من الغضب. وأبقت ايمي نفسها متعمدة ما بينه وبين جو. وعندما غادرا غرفة الملابس بعد الحمام كان ميل قد ذهب. وجلسا إلى الطاولة لتناول المرطبات كالعادة، وأخذت تفكر بتصرف ميل، ربما عنده عدة أسباب! أولاً. لم ينس لها أنها كشفت مخبأه في المغاور للدوق، ثانياً. قد يكون يشعر بالغيرة لاهتمام الدوق بهما. وثالثاً. ربما كان يستخدم البركة كل يوم بعد المدرسة وتضايق من تطفلها عليه. وقررت ان تواجه ميل عند أول فرصة لتعرف سبب تصرفه الفظ هذا.

في اليوم التالي، ترددت قبل أن تذهب الى البركة، ولكنها قررت ان لا توقف دروس السباحة لجو. وارتاحت عندما لم تجد أثراً لميل عندما وصلا الى البركة. وبطريقة ما خاب أملها، فقد كانت راغبة في التحدث مع الصبي في محاولة تصحيح الامور بينهما، فإذا كان يعتبرهما متطفلين فلن تعود ثانية. فالمياه في البحيرات قد أصبحت حارة بقدوم الصيف وجو قد تعلّم ما يكفي ليتابع دروسه في واحدة منها وقد يفتقد الشاي، ولكن ليس باليد حيلة.

وبدأت تسبح على طول البركة كعادتها، تاركة جو يلعب بسعادة عند النهاية الضحلة للبركة. وكانت عائدة إلى الناحية الأخرى عندما أحست بقبضة متوحشة على كاحلها الأيسر مما جعلها تجفل وبعد لحظات أصبحت تحت الماء، وشهقت وابتلعت كمية من الماء واخذت ترفس لتخليص نفسها بكل قواها. ولكن جهودها كانت سدى، واستخدمت بيأس قدمها اليمنى لمحاولة إبعاد اليد التي تقبض على كاحلها الأيسر، ولكن دون جدوى.

واصبحت مقاومتها من أجل البقاء. ولكن مقاومتها أخذت تضعف، وضجيج فظيع أخذ يعلو في أذنيها، وحاولت ايمي محاولة أخيرة، ورفست برجلها اليمنى الى الجانب، آملة ان تصيب من يمسك بها بضربة في مكان ما على معدته ونجح الامر، وشعرت بلمس اللحم الطري، وشعرت به يصعد ويترك كاحلها. الثواني التالية كانت مظلمة لها وهي تحاول الوصول إلى سطح الماء. وبعد لحظات كانت تطفو على ظهرها، بالكاد متمالكة لوعيها. وتدريجياً اخذت تتمالك نفسها. ونظرت حولها فلم تجد أحداً. ثم نظرت إلى الخلف لتجد جو يلعب فرحاً. من جذبها إلى الأسفل اختفى. بالطبع كان هذا ميل. لا بد أنه تسلل إلى البركة عندما كانت مشغولة بجو. ولن يعود. ربما يكون الآن بعيداً ومتكوراً على نفسه يمسك بمعدته. وربما خائفاً مما فعل. وقررت أن يبقى الامر مكتوماً لتبحثه بينها وبين ميل. فمن الواضح أنه صبي غير سعيد أبداً.

في الوقت الذي كانا فيه يتجهان إلى السيارة، فوجئت بأنها وجهاً لوجه مع سيمون غرونويلد، وهي على وشك قرع جرس الباب الرئيسي. وبدا على وجهها إمارات العداء. وقالت بغطرسة «آنسة ليستر! لم أتوقع أن أراك هنا. ألم تعرفي أن الدوق مسافر؟».

أنا أعلم تماماً أنه مسافر، سيدة غرونويلد، نهارك سعيد.

ولم ترد سيمون، وأسرعت ايمي مع جو إلى السيارة، للمرة الثانية في زيارتها لبركة السباحة عوملا وكأنهما دخيلين.

يوم الجمعة، كان يوماً كثر فيه العمل. واشرفت ايمي على تغيير البياضات للأسرة، وأغطية الطاولات، ثم تنظيف كل الغبار، واصبحت النوافذ تلمع بالنظافة، حتى أن زجاجها بدا وكأنه غير موجود.

بعد الظهر وصلت عائلة انكليزية دون توقع، وطلبت النزول في الفندق لمدة اسبوعين، في غرفة مزدوجة، وغرفتين منفردتين للابن والابنة. وبعد التفاوض مع السيد برولارد تم الاتفاق مع العائلة. ونظرت ايمي إلى ساعتها لتجد أن الوقت قد تأخر لتأتي بجو من المدرسة. واتصلت بالمدرسة ليجيبها جايمي الحارس ووافق على ابقاء جو معه إلى أن تصل لتأخذه.

وتأخرت نصف ساعة عن موعدها العادي عندما توجهت الى المدرسة. وكانت تقطع الطريق المؤدية إلى القصر عندما شاهدت ميل. كان متجهاً نحوها في طريقه إلى القصر، حقيبته مدلاة من كتفه وعيناه إلى الارض. وأوقفت ايمي السيارة ونزلت لتقابله. ومضت بضع لحظات قبل ان يرفع نظره ويراها. وتغير التعبير في وجهه إلى خوف، وتراجع ليهرب على الطريق. ونادته ايمي:

ـ لا تهرب يا ميل.. أريد فقط التحدث معك.

ولكنه تجاهلها وركض بأقصى سرعة. وسمعت سيارة قادمة عندما اختفى عند انحناءة الطريق. وسمعت صوت فرامل السيارة تصدر صوتاً عالياً، فأسرعت مذعورة خلفه، لتجده يزحف على يديه وركبتيه، وقد خرج السائق وهو غاضب، وصاح به «ماذا تظن نفسك تفعل بحق الشيطان؟ ألا تعرف سوى اللعب على الطريق العام؟» كان الدوق الذي حدق به بينما كان يقف على رجليه ويمسح كوعه الايمن «كان يمكن أن تقتل! أنا مندهش منك يا ميل!» والتقط حقيبة المدرسة عن الارض ووضعها في السيارة ثم نظر إليه «هل أنت مصاب؟» وهز ميل رأسه وتمتم بكلمات غير مفهومة فأمره الدوق «ادخل الى السيارة» واتجه نحو ايمي،

التي كانت مبيضة الوجه ترتجف، وتقف تلتقط أنفاسها. «هل كان ميل يضايقك آنسة ليستر؟»

المضايقة، لم تكن الكلمة المناسبة. كان عليها ان تقنع هذا الرجل الذي وضع يده على ذراعها باهتمام، ان لا شيء قد حدث. وكانت تشعر بقوة اصابعه، وبوضع فكه المصمم، وبعينيه اللتين تخترقان روحها. ومن خلفه جلس ميل يحدق بها بوجهه الابيض عبر نافذة السيارة. فاخفضت عينيها، وخذلتها شجاعتها.

ـ لم يكن شيئاً مهماً في الواقع. إنه شيء لا يذكر بيني وبين ميل. أشكر الله أنه لم يصب بأذى. لو سمحت لي، يجب أن أذهب، لقد تأخرت على جو في المدرسة.

واخذ يتفرس في وجهها، وعيناه تضيقان لمشاهدة فمها يرتجف، ثم تظهر عليه الابتسامة، وقال ببطء:

ـ هل انت متأكدة؟ لو علمت أن ميل يتقدم منك لكشفك مخباه في المغاور تلك الليلة، فسأجعله يندم مدى حياته.

ـ أنا متعودة على التعامل مع الاولاد الصغار، وميل ليس أكبر من ابن أخي بكثير.

وتقبل منها هذا، ولكنها شعرت أنه لم يكن راضياً.

ـ سأقبل رأيك بالموضوع. هل استعدت صحتك أنت وابن اخيك من حادثة السافية؟

ـ أجل وشكراً لك على الهدايا. كان هذا لطف منك.

ـ وهل استخدمت بركة السباحة؟

ـ أجل لقد كنا هناك البارحة.

ـ أول زيارة لكما؟

ـ لا، لقد حضرنا عدة مرات.

وتحركت بقلق مبتعدة عن يديه، وذكرته الحركة أنها على عجلة من أمرها. إذ لم يكن منتبهاً للامر، لأن افكاره كانت مركزة على شيء آخر.

ـ إذاً سأتوقع رؤيتك عند بركة السباحة بعد أن تأتي بابن أخيك من المدرسة.

ـ أخشى أنني لن أستطيع، أترى، عندي عمل في الفندق فأنا أعمل الآن هناك كموظفة استقبال، وبما أننا مشغولون جداً اليوم يجب علي أن أسرع بالعودة.

ـ إذن ستكونين حرة عند نهاية الاسبوع؟

ـ لا أعلم. ولو كان لدي يوم راحة. آخذ جو عادة في نزهة. الطقس الآن دافىء، ونستطيع استخدام البركة للسباحة، شكراً لك، لا يجب أن نزعجك بعد الآن.

ـ هل قال لك أحد انه ازعاج أن تزوري بركة السباحة؟

ـ لا.. ساشا شخص عزيز، وتمتعنا بوجودنا هناك كثيراً. كان لطفاً منك أن تصر على تقديم المرطبات لنا، أشكرك على كل شيء.

ـ وهل بدأت عملك في الفندق اليوم، آنسة ليستر؟

ووقعت ايمي في الفخ «لا، لقد مضى عليّ أربعة أيام».

ـ وكنت تأتين إلى السباحة كل يوم، لأن عندك الوقت الكافي بعد احضارك ابن أخيك من المدرسة. اخبريني آنسة ليستر من يأخذ مكانك عندما تكونين خارج الفندق؟

ـ السيدة أو السيد.

ـ وهل هما موجودان هناك اليوم؟

ـ أجل.

ـ ومع ذلك عليك الاسراع بالعودة. لو أن السيدة أعطتك وقت راحة كافٍ في اليوم السابق، فستعطيك نفس الوقت اليوم ايضاً. إلا إذا أسأت استخدام ما تقدمه لك، وأنا متأكد أنك لست من هذا النوع. هل أنا مصيب أم لا؟

وشعرت ايمي انها أسيرة وراء القضبان، وأسرعت تؤكد له.

ـ ولكن اليوم مختلف. فقد تأخرت نصف ساعة عن ابن أخي في

المدرسة في الحقيقة لا أرى أي سبب لهذه الاسئلة. بالتأكيد الأفضل لنا أن نستخدم البحيرة للسباحة بدلاً من إشغال موظفيك بعمل اضافي.

ـ موظفي ليسوا مرهقين بالعمل، ويتمتعون باداء واجباتهم. والأكثر من هذا أن كل اسئلتي تأتي لأن لديّ فكرة أنك تخبئين شيئاً عني. هل أنت واثقة أن ميل لم يزعجك بأية طريقة؟

ـ أجل.. لقد أزعجني عندما اعتقدت أنك صدمته بسيارتك.

ابتسامتها لم تكتسب منه أي رد. وعلمت ايمي أنها لم تقنعه. ولكن لم يكن يستطيع فعل شيء إلا إذا اعترف ميل بما فعل. ولكنه سيكون خائفاً جداً ليعترف له.

ـ هل أتيت سيراً إلى المدرسة؟

ـ لا.. لقد تركت سيارتي عند المنعطف.

ـ هكذا إذاً.. لن استبقيك أكثر آنسة ليستر، إلى اللقاء، وتمتعي بالسباحة في البحيرة.

بعدما انتهت من تناول العشاء تلك الليلة، اتصل بها جول:

ـ مرحبا ايمي.. لدي زيارتين للمرضى هذه الليلة، وأتساءل إذا كنت تحبين مرافقتي سنذهب في نزهة فيما بعد، فأمسيات الصيف أروع من أن نقضيها داخل البيوت. إضافة إلى انني بحاجة لرفقة.

ـ أجل سأذهب معك، أنا مستعدة الآن إذا أردت.

وبعد عشر دقائق كان عندها وصعدت السيارة إلى جانبه. كان الجو بينهما مريحاً وودوداً وهما يجوبان في القرية. وكان واضحاً أن جول مسرور من رفقتها له. كان لديه ثلاث زيارات، اثنان في المزارع وواحد في «شاتو دي فلور» وسألته وهي تخفي قلقها للذهاب الى هناك «هل حدث شيء؟» فأجابها «إنه ميل» وأحست بشيء يعلق في حنجرتها «ميل.. ما به؟».

ـ مما عرفته، لقد اصطدم بسيارة الدوق وأصيب كوعه.

ـ وهل الامر خطير؟

- من الصعب القول قبل رؤية صورة الاشعة، يبدو انه عطب عصباً في يده، فهو غير قادر على امساك القلم، وقد غاب عن المدرسة.

وشعرت ايمي بالارتجاف، فاليد التي جرتها من قدمها، وكادت تقضي عليها، قد دفعت الثمن. ولكن كم هو فظيع أن تعلم أنها كانت السبب.

- يا الهي! اتمنى حقاً أن لا يكون الضرر خطيراً.

- سيتأكد الدوق من أنه سيلاقي أفضل عناية طبية. وفي هذه الاثناء يشجع الصبي على التمرن بالكتابة بيده اليسرى، اعتقد أن السيدة غرونويلد ستذهب كل يوم إلى القصر لمتابعة دروس الصبي.

- وماذا عن والداه؟

- هناك صراع بينهما حول رعاية الولد. فكارل دو لاب، والده هو سويسري ووالدته رينيه، فرنسية ولم تستطع الاستقرار في سويسرا، تركته عدة مرات واظنهما الآن سينفصلان.

ووصلا إلى مدخل القصر، وقف جول بهدوء أمام القصر، ولم يغب أكثر من عشر دقائق، حيث جلست ايمي وهي ترتجف من القلق، وخرج برفقة الدوق. وذهب جول الى مقعده، ونظر الدوق إليها وقد علاه تعبير لم تستطع معرفة نوعه، خيبة امل، تدقيق أم سخرية. وقد يكون له أثر من المرارة، وتساءلت كم يعرف عن سبب حادثة ميل. وحياها ببرود وأدب وقال «اعتقد أنك تتمتعين بنزهتك آنسة ليستر»

- أنا آسفة جداً لسماعي ما حصل لميل. اتمنى ان يصبح أحسن حالاً في وقت قصير.

- شكراً لك.

وتحركت السيارة مبتعدة، ولوح الدوق بيده، وغرقت ايمي في مقعدها بصمت، لم تدر إذا كان من الحكمة ان تأتي. يجب عليها في المستقبل ان تعتبر القصر من المحرمات لديها. وعندما اصبحا على الطريق الرئيسية قال جول:

- هذا الصبي ميل، إنه عنيد صعب الكلام. لا تستطيعين استعلام شيء منه وليس لديه أخلاق.

- لا بد أنه يشعر بالتعاسة والقلق دون والديه. هل كانت السيدة غرونويلد هناك؟

- أجل، كان منظرهم عائلياً جداً عندما انضمت السيدة للحديث وكأنها جزء من أهل البيت.

تلك الليلة كان هناك العديد من السيارات على الطريق، ربما جلبها الطقس الجميل، واوقف جول السيارة في مكان يستخدم للوقوف أمام مقهى للمرطبات. وغادرا السيارة ودخلا المقهى. من خلال النوافذ شاهدت ايمي مناظر رائعة، وقادها جول الى تراس يشرف على ساقية جبلية وجلسا على مائدة في الزاوية وبدا المكان شعبياً يتواعد فيه السكان المحليون لتناول القهوة أو الشراب، لأن جول كان يتقبل التحيات من الجانبين وهما يدخلان. وما أن جلسا حتى تقدم منهما رجل ضخم أشقر وحيا جول وقال بابتسامة شملت ايمي أيضاً: «لقد ارسلتني صونيا لاذكرك بالعشاء عندنا غداً، وتريد منك إحضار صديقتك معك».

- شكراً هذه الفكرة. أوجين هذه الآنسة ايمي ليستر، التي تعيش هنا مع ابن اخيها الصغير. ايمي هذا أوجين باليتر، ساحر الهندسة في بيته. أنا أحسده.

- تشرفنا آنسة ليستر. أنا وصونيا في الغرفة الأخرى مع مجموعة أخرى هل تنضمان الينا؟

- لا أعتقد هذا يا أوجين، شكراً على كل الاحوال.

- أراك غداً إذاً، جول، آنسة ليستر.

واقبل الساقي ومعه كوبين من الليمون، وبعض المقبلات الشهية وذاقت ايمي قليلاً منها وقالت «حول هذا العشاء غداً، هل هو عشاء رسمي؟ أنا لست سوى فتاة عاملة وخزانة ثيابي فقيرة»

- لا تهتمي، ستجدين السويسريين أليفين بطبعهم. والثراء هنا

بضيع مع الاكثرية الوادعة، والنتيجة هي نوع من الرفقة أجدها رائعة. وتأثير الرسميات الفرنسية معدوم في المحيط السويسري الريفي.

ـ أخبرني المزيد عن السويسريين.

ـ ولم أنت مهتمة بهم؟

ولاحظت ايمي بعض النوايا في صوته، وكأنه يمهّد للكلام عن شيء آخر. فهل لاحظ ارتباكها عندما قابلت الدوق هذه الليلة؟ إذا كان لاحظ فإنه الآن يتصرف بوحي من غيرته. وأصابتها الفكرة بالخيبة. وللمرة الثانية تلك الليلة تساءلت ما إذا كان من الحكمة أن تأتي معه. ولكنها قرّرت أن عليها أن لا تفسد صداقتهما.

ـ ولماذا لا يجب أن أعرف أكثر عن السويسريين. فأنا أعيش بينهم للسنتين القادمتين.

ـ حسناً، لا حاجة بك لأن تكوني متلهفة هكذا حول الأمر.

ـ وأنت يجب أن لا تكون غاضباً هكذا حول الأمر.

وضحكا، ثم سألها فجأة «ماذا تريدين أن تعرفي؟».

الفصل السابع

استعداداً لحفلة العشاء تلك الليلة عند آل باليتر ارتدت إيمي ثوب السهرة الوحيد الذي تملكه. ولم تكن الحفلة ستبدأ قبل التاسعة مساء مما أعطى جول وقتاً للبقاء في عيادته وإجابة بعض الدعوات من مرضاه. واتصل بها حوالي التاسعة إلا ربع، وخلال عشر دقائق كان يوقف السيارة أمام المنزل.

كان المنزل مبنياً على الطراز الالبي التقليدي، على تل مرتفع وكانت صونيا باليتر تنتظر لتحييها إلى جانب زوجها، كانت شقراء صغيرة الجسم، بدت فاتنة في ثوبها الملفوف الأزرق الداكن. وكان هناك اثنا عشر ضيفاً، كلهم تحت سن الخمسين، لذا فقد بدت الحفلة بأنها ستكون مرحة وممتعة.

بعد العشاء، ذهب الجميع إلى الرقص على أنغام الموسيقى المسجلة، وتمتعت إيمي بالرقص كثيراً. لقد مضى عليها زمن منذ أن ذهبت إلى الرقص آخر مرة، وجول كان شريكاً رائعاً. يتحرك برشاقة وخفة على إيقاع الموسيقى مما أدهشها، وعندما غادرا قرابة منتصف الليل، كانت قلقة لوجوده قربها في السيارة أكثر من قبل. ولكن على الرغم من أنها تجده وسيماً ولبقاً في الحديث، إلا أنها تعرف أن لا شيء ممكن أن يكون بينهما، وبتحليل مشاعرها نحوه وجدتها نوع من الاعجاب، والرفقة، كما لو أنه شقيقها.

WWW.REWITY.COM

بعد ظهر يوم الثلاثاء، خرجت مع العائلة الانكليزية بعد أن طلبوا منها أن تدلهم على مكان جميل يقضون وقتهم فيه، ففضلت مرافقتهم على أن تصف المكان لهم. كل ما حولهم كان يمثل جمالاً لا يصدق. ففي أعالي القمم كانت تظهر مروج برية ملأى بالزهور وكأنها سجادة ملونة تبهر النظر، بينما الحقول في الأسفل رائعة الجمال مفروشة بأزهار الجبال الكثيفة، الشقائق الحمراء والأقحوان، والزهور الصفراء، وأزهار الربيع، مما ذكر إيمي بربيع انكلترا وجعلها تشعر بالحنين إلى الوطن. وجدت نفسها مشتاقة لدفء ابتسامة من صديق، لحديث أثناء تناول القهوة، ولضحكة حول حادثة غريبة تثير الدموع. وبعد جلوس رفاقها بين العشب والزهور، سارت نحو جسر فوق ساقية ووقفت تفكر.

- صباح الخير آنسة ليستر، هل خرجت في نزهة؟

وجفلت للصوت العميق المألوف، واستدارت، وخفق قلبها، ثم توقف، ثم تسارع من جديد، بمزيج من الفرح والألم. الدوق!

واتسعت عيناها وهي تنظر إلى القسمات السمراء الحليقة، وبدت كالحمقاء عندما احمر وجهها.

- أجل.. لا... اعني.

وتوقفت عن الكلام، وقد لاحظت أنه مسرور من اضطرابها، ثم بلهجة أكثر هدوءاً اخبرته عن سبب قدومها الى هنا.

- إذن لقد تسللت، مثل رسام إلى لوحته.

ورفعت إيمي نظرها إلى التلال، وبدا لها العالم من حولها فجأة وكأن له بعد جديد، «أليس المنظر وكأنه من الجنة؟» ونظرت إليه ثم ضحكت بمرح صافٍ «منذ بضعة لحظات كنت أشعر بالحنين الى الوطن، ولكن عندما أشاهد هذه المناظر لا أرغب في تركها أبداً».

وقال لها بعد توقف قصير حدق فيها خلاله متفحصاً «إذاً أنت تحنين إلى وطنك؟ هل ستكونين سعيدة بالعودة إلى إنكلترا؟».

- لست متأكدة، فهذه البلاد جميلة، وتأسر الإنسان.

- وهل تعتقدين أنها ستأسرك؟

- أجل، ربما، أنا متأكدة أنني سأجد نفسي أتذكر كل هذا الجمال لمدة طويلة. وخاصة خلال ضباب تشرين الثاني.

وجال بنظره عليها مرة أخرى، وللحظات لم تستطع التحرك أو الكلام. وحدقت في الوجه الأسمر الجذّاب، وارتعدت لتمنيها أن تغرق في زرقة عينيه العميقتين. ثم ذهب عنها التوتر، وتذكرت فقالت صائحة:

- يا الهي! يجب أن أعود إلى الفندق.

- هل أتيت الى هنا مشياً؟

- أجل ولماذا؟

- لأن هناك طريق مختصرة نحو القرية عبر الحقول قد توصلك إلى القرية بنصف المدة، تعالي سأدلك عليها.

وأخذها عبر الجسر الصغير، ومشى معها الى بوابة حقل نصف مخبأة بالأشجار، وفتحها ومرا، ثم أغلقها خلفه، وسألته:

- لن تأتي معي بالتأكيد، سيبعدك هذا عن طريقك.

- وإن يكن؟ أنا أحب المشي كما تعرفين.

وانحدر بهم الحقل إلى أشجار كرز، مزهرة بالكامل. وإلى اليمين منهم قليلاً، استطاعت إيمي أن ترى ساحة القرية، والفندق يلمع في الشمس. وسارا عبر الممر العشبي، الذي لا يستخدمه كما هو ظاهر سوى المحليين هناك إلى ممر آخر بدا وكأنه لم تطأه قدم من قبل.

وبعد وقت قصير جداً، وصلا الى نهاية الحقل ثم إلى ممر يقود بين الأشجار إلى القرية، وتركته بعد أن شكرته، ثم سارت دون وعي نحو ساحة القرية، وهي لا ترى شيئاً، ولا تسمع شيئاً، بل مدركة ببؤس مدى بعدها عن الرجل الذي امتلك قلبها الى الأبد.

ومر اليومين اللذين تليا، وهي تستعيد الذكرى والألم، وفي اليوم الثالث، وقت الغداء، دخلت السيدة غرونويلد إلى الفندق لوحدها

وذهبت رأساً إلى إيمي وابتسمت وحيتها، وأخذت أحد الكتيبات الملونة عن الطاولة.

ـ إذاً، لقد حصلت على وظيفة صغيرة آنسة ليستر، لتبقيك بعيدة عن الحوادث المؤسفة.

وضاقت عينا السيدة، وابتسمت ابتسامة ساحرة، واردفت:

ـ أعتقد أن ساعات عملك ليست طويلة. سامحيني للتطفل، ولكن هل تعملين خلال الليل؟ لديّ أسباب خاصة لمثل هذا السؤال.

ـ معظم الأمسيات أكون دون عمل بعد السادسة، ولكنني عادة أتأخر لأتمرن على الآلة الكاتبة لساعة أو ساعتين.

ووضعت السيدة الكتيب من يدها وقالت، وهي تنظر اليها:

ـ لا بد أنك سمعت أن ميل دولاب، لا يحضر إلى المدرسة لأنه غير قادر على تحريك يده بسبب حادثة حصلت له.

ـ أجل سمعت عن هذا. وأنا آسفة جداً. هل هناك دلائل عن تحسنه؟

وشهقت المرأة شهقة فرنسية «يبدو أن هناك شللاً في أصابعه، ولا نعرف ما إذا كان دائماً أم لا. وفي هذه الأثناء اعطيه معظم أمسياتي لتدريبه على دروسه. استاذه يعطيني الأوراق والمواضيع المطلوبة كل يوم في المدرسة، وأراجعها مع ميل عند المساء».

ـ ولماذا لا يرعاه استاذه؟ سيكون هذا أفضل بالتأكيد.

ـ لا يقدر على ذلك لأنه يعطي دروساً في مدرسة ليلية، كما أفعل أنا.

ـ مثلك؟

واندهشت لأنها لم تفكر بأن تفعل هذا بنفسها أبداً.

ـ أجل، ولكنني لا اعطي سوى ساعتين في الأسبوع. آخذ الأولاد المتخلفين وأدرسهم الإنكليزية. لذا فأنا هنا لأطلب منك معروفاً. أنت معلمة كما أعتقد؟

ـ كنت معلمة.

ـ إذاً اتساءل إذا كنت لا تمانعين في أخذ هذه الدروس عني لبضعة أسابيع، إذا لم يكن أقل. إلى أن يتمكن ميل من الذهاب إلى المدرسة ثانية؟ وقد يكون هذا في صالحك مستقبلاً، بما أنني لن أستطيع متابعتها ولا متابعة المدرسة النهارية بعد أن أتزوج.

ـ وهل ستتزوجين يا سيدة؟

ـ بما أنك غريبة هنا فلا يمكن لك أن تعلمي عن علاقتي بالدوق دو بوليان أي بوفي. لقد كنا مقربين طوال حياتنا، وهكذا فما هو الطبيعي أكثر من الزواج؟ بالطبع لم يتم ترتيب شيء بعد، فبرول مهتم كثيراً بميل، وعندما تتم تسوية الخلاف حول رعاية الولد عند ذلك نتزوج. اخبرك هذا كسر بالطبع.

واختلطت أفكار إيمي، إذاً فما يقال صحيح، أليس هذا ما يتوقعه الجميع؟ وشحب لون إيمي وقالت بهدوء:

ـ يجب عليّ ان أعلم أكثر ما هو مطلوب مني قبل أن الزم نفسي، كذلك عليّ استشارة السيد والسيدة برولارد، إذا كانا يوافقان.

ـ حسناً.. الدروس يومي الثلاثاء والخميس مساءاً.

واستمرت في اعطائها بعض التفاصيل وانهت بقولها: «كل هذا بيني وبينك آنسة ليستر. واعتمد على كتمانك بالنسبة لما قلته لك عن الدوق»

ـ يجب أن يكون الأمر سراً. اعطني رقم هاتفك سأطلعك على النتيجة بعد استشارة السيد والسيدة برولارد.

واعطتها رقم الهاتف وارشدتها إلى العنوان وهو شاليه قريب من القصر، وراقبتها إيمي وهي تقطع البهو، ثم تخرج من الفندق.

ووافق السيد والسيدة برولارد على تدريسها الدروس في المدرسة الليلية، وكانا متحمسين للفكرة، وبعد نظر منهما، اعتبرا الأمر فرصة لها لتأمين وظيفة تدريس لها فيما بعد. ومن ناحية أخرى، كانا لا يريدانها أن تتعب نفسها زيادة، ولكن إيمي لم تكن تخاف هذا، فقد كان لها فرصة لشغل تفكيرها امسيتين في الأسبوع.

كانت السيدة غرونويلد تنتظر وصول إيمي في اليوم التالي لأخذ جو من المدرسة. وحضّرت الشاي والبسكويت في الغرفة الملاصقة للصف. وتناقشتا كل الاساسيات وتم الاتفاق أن ترافقها السيدة إلى أول صف مسائي لتقديمها للتلاميذ.

كان هناك ستة تلاميذ، وأعطت إيمي اهتمامها لكل واحد منهم أملاً في الحصول على نتيجة. فقد علمتها التجربة أن بعض الأولاد خجولين بطبعهم، وليسوا متخلفين أبداً، على الرغم من الرأي الأولي عندما يكونون بطيئين في الرد على الأسئلة.

صباح يوم السبت حضر إليها جول وهي تجلس إلى آلتها الطابعة وقال لها:

ـ هل أنت حرة هذا المساء ومستعدة للخروج؟

وتوقفت عن الطبع، وقد اقلقتها لهجته «لماذا؟»

ـ لأننا سنتناول العشاء في شاتو دي فلور هذا المساء، فقد اتصل بي برول ليقول إن صديقاً له سيأتي لتفحص يد ميل. وهو جراح مشهور، وكان معلمي المفضل عندما كنت أدرس في جمعة أدنبرة. وأصر برول عليّ لأقابله وسألني أن آتي بك معي.

ـ ولماذا؟ إكمال عدد؟ أم هو يفكر، كما يفعل شخص أعرفه، أننا أنت وأنا جديين في علاقتنا؟

ـ ومن هو هذا الشخص؟

ـ السيدة غرونويلد، في الواقع نصحتني بالتمسك بك لأنك «لقطة».

ـ ولماذا لا تفعلين؟

وتركت مقعدها وتقدّمت منه وضربته بطرف اصبعها على انفه.

ـ لأننا غير جديين، فصداقتنا بريئة صافية، وكل ما في الأمر أن كلينا وحيدين، وقد اجتمعنا معاً. ولا يربطنا شيء أقوى من الصداقة.

وأمسك برسغها وقال متحدياً «اثبتي هذا، حاولي أن تخلصي نفسك».

ـ لا ضرورة لذلك يا جوك، فإنا أعرف أن ما أشعر به نحوك ما هو الا شعور دافىء، وليس الحب. ولو كان الحب، لكانت لمستك لي اشعلت الدماء في عروقي. وهي لا تفعل يا جول سوى القول لي أن لديّ صديق أستطيع الوثوق به. أما بالنسبة لك فأنا أعرف أنك لن تعرف السعادة التي شاركتها مع زوجتك ثانية. لذا لا تقل أنك في حب عميق لي، لأنني لن أصدقك.

وأدار راحة يدها ببطء وأخذ يتفحصها.

ـ هل يعني هذا أنك لن تذهبي معي الليلة إلى شاتو دي فلورا؟

ـ آسفة يا جول، لا.

وترك يدها، وأرخى كتفاه العريضان، وأمسك باصابعه بطرف الطاولة وقال:

ـ إذاً، أنت لن تخرجي معي ثانية؟ هل هذا ما تحاولين قوله؟

وأخفضت عينيها لتبعدهما عن خيبة الأمل الظاهرة في عينيه وقالت:

ـ ليس بالضرورة، ولكنني وجدت ضرورة لوضع الأمور في نصابها الصحيح بيننا ألا توافق معي؟

ـ حسناً، لقد اقنعتني، هل هناك سبب معين لعدم رغبتك في الذهاب معي هذه الليلة؟

ـ هل من المهم لك أن أذهب معك؟ بالتأكيد تستطيع الذهاب لوحدك؟

ـ إنه أمر هام جداً لي. منذ وفاة زوجتي وأنا أفكر جدياً بالذهاب للتخصص في الجراحة. وقد ذكرت ذلك للدوق مرة على العشاء، ولم ينس الأمر. وهو يعرف أن جورج سارتيز يستطيع مساعدتي كثيراً في هذا الاتجاه. لذلك يريد مني الذهاب الليلة لمقابلته. هل تذهبين معي؟ سأبدو صغيراً لوحدي في حفلة العشاء، وقد تساعديني في أن أتبادل الحديث مع سارتيز.

ـ هذا رائع.. أنا واثقة أنك ستكون جرّاحاً ممتازاً، سأذهب معك.

كانت جاهزة عندما وصل جول في المساء، ونزلت بعد أن القت نظرة على جو، وقالت لهيلغا إنها خارجة. وقال جول وهي تدخل الى السيارة بقربه:

- أنت تبدين مدمرة، لا تصفك الكلمات.

- شكراً. لقد شعرت دائماً أن هناك شيئاً سحرياً في هذا الثوب، ربما يجلب لك الحظ. أنت تقول سارتيز العجوز، كم عمره؟

- في الخمسينات. لقد بدا لي دوماً كبيراً لأنه حاذق وجراح ماهر. كنت دائماً أحضر محاضراته. لقد تزوج ابنة عم الدوق وعندهما ثلاثة أطفال.

- وهل زوجته معه؟

- أجل، أعتقد أن سيلفيا متعلقة بابن عمها الوسيم.

- إذاً سآخذها من زوجها بينما تتحدث أنت معه. والدوق سيكون مشغولاً بسيمون غرونويلد دون شك.

- تعنين أن سيمون ستكون مشغولة بالدوق، وهذا شيء مختلف.

- ربما، ولكن كل شيء جاهز لعلاقة بينهما، هكذا تقول الشائعات.

ولم يقل شيئاً بعد عن الموضوع. واصبحت اعصابها متوترة وهما يقتربان من القصر. وحياهما الدوق عند الردهة، وبينما هما يدخلان شعرت إيمي بجاذبيته، وابتلعت ريقها بصعوبة، والتقت عيناها عينيه لوقت قصير. وبدأ قلبها يخفق ورأسها يدور، ثم انتهى الأمر وتحركت مع جول إلى الداخل لوصول اشخاص آخرين وراءهما.

وكان القادم السيدة غرونويلد، يرافقها الهر براندت فيترز، وابنته الجميلة، التي عرفت ايمي فيما بعد، إنها مخطوبة لضابط سويسري، وكان جورج سارتيز وزوجته سيلفيا في غرفة الاستقبال يتناولان الشراب. ولاحظت إيمي أنه لا يبدو مطلقاً كجراح، فقد كان مكتنزاً أصلع وقوي وصوته عميق هادر ويداه كبيرتان، ولم تكن زوجته جميلة ولا حتى حسنة المظهر، ولكن كان جو من الوقار يلفها وينتشر من قمة شعرها البني

البراق الى قدميها الملفوفتين. وشعرت إيمي بشيء يشدّها اليها وعلمت بأنها قد وجدت صديقة.

لم يكن هناك سوى ثمانية ضيوف بما فيهم الدوق عندما دخل الجميع إلى غرفة الطعام. وكان العشاء يقدم بتمهل. حضر وقدّم بأناقة دون إظهار للثراء، ولكن بالنسبة لإيمي، كانت بساطته المتناهية هي ذروة كماله. لم يكن ضمن عالمها، لأنها ليست جزءاً منه، ولا مستقبل لها مع الرجل الذي تحبه، خلال تناول الطعام، وكانت تجلس بين جول والهر براندت فيترز، رفضت أن تسمح لنظرها أن ينجذب أكثر من مرة واحدة نحو الدوق وسيمون، وشعرت أن قربهما من بعض كان ملموساً، وغادرت السيدات الطاولة، وانضم الرجال اليهم بعد قليل، وقدمت القهوة في غرفة لها نوافذ فرنسية مفتوحة على الحديقة والتلال المحيطة.

وكان من السهل على إيمي أن تأخذ سيلفيا عن بقية الضيوف، فقد بدا أنهم يجلسون كل اثنين مع بعضهما على كراس قرب النوافذ، وبدا لها أن لديهما الكثير من الأشياء المشتركة كابن سيلفيا الصغير بعمر ابن شقيق إيمي، وعلمت إيمي خلال المحادثة أن سارتيز يفكر بالعيش في سويسرا في المستقبل القريب، ويفاوض لشراء ڤيلا في جنيف.

النقطة اللامعة الوحيدة التي أسرت إيمي كانت أن جول يتحدث إلى جورج سارتيز وبرول. وكانت سيمون، التي بدت باردة مثل زنبق الماء، جالسة مع الهر فريتز وابنته يتبادلون الحديث، عند الساعة العاشرة غادرت سيلفيا الغرفة لتجري اتصالاً مع ابنها الصغير في لندن، واصبحت إيمي لوحدها، وانتبهت لصوت سيمون يقول:

- سوف نفتقد لابتك برندت، عندما تتزوج، ستصبح لوحدك.

وراقت إيمي سيمون، وهي تشعر أنها تلعب بالرجل أمام الدوق، لأنها بينما كانت تتكلم كانت عيناها تنتقلان من الهر إلى الدوق، ثم ثانية إلى مرافقها وشفتاها تفترّان عن ابتسامة ذات مغزى.

ونهضت إيمي، وهي تشعر بالحاجة إلى هواء نقي، وخرجت تتجول في الحديقة، وتمنت لو تعود إلى الفندق، وكادت أن تذهب لوحدها سيراً. ولكنها أسرعت في سيرها في الحديقة لتبتعد قدر ما تستطيع عن المنزل. لكنها أحست ببرول يتقدم نحوها بخطواته الثابتة وقالت: «أوه» قبل أن تفقد القدرة على الكلام، وانعقد لسانها أمام نظرته المركزة عليها كل ما كانت تعرفه أنها طوال حياتها ستبقى متذكرة هذه اللحظات المسروقة من الزمن، عندما لا يبقى في العالم كله سواهما معاً.

وبطريقة ما أجبرت نفسها على تحيته «مرحباً، ما هذه الحديقة الجميلة».

كلمات لا معنى لها، بلهاء، تكلمت بها بسرعة بسبب ارتجاف قلبها، وحاجتها الملحة لذراعيه من حولها. وتطلع بها بغرابة، وفجأة بدت لمعة في عينيه الزرقاوين. فقال لها:

- من الواضح أنها اجتذبتك إلى الخارج.

وسار معها بصمت ينظر كلاهما أمامه إلى الأفق الأزرق ينتشر كغطاء أزرق خلف قمم الجبال، ما من شك أنه يجد الجمال الرقيق يريح روحه لأنه يحب هذا المكان، ولكن بالنسبة لها لا يشكل سوى الفراغ. إنها بلاده وجزء منه بينما هي غريبة، وكأنها سفينة تمر خلال الليل.

ونظرت ايمي إلى جانب وجهه القوي الصارم، وأحسّت بالخطر وبأن هذه الليلة غير العادية مليئة به. فسألته ببساطة:

- كيف حال يد ميل؟ هل كان رأي الجراح واعداً؟

- ليس كثيراً فالكسر في الكوع أعطب عصباً يؤثر على الاصابع. ويجب على ميل أن يذهب إلى المستشفى لإجراء عملية محتملة.

- أوه يا عزيزي، كم أنا آسفة.

- لا تلومي نفسك، انها ليست نهاية العالم. إنه يتعلم كيف يكتب بيده اليسرى ربما يكون الأمر خير له فقد صرفت تفكيره عن أهله، إضافة إلى انها الصدمة التي يحتاجونها، لقد كتبت لهما أن ميل قد أصيب

بحادث، وهذا ما قد يأتي بهما معاً إلى هنا.

ووضع يده فوراً على ذراعها. وسألها بعجلة «هل تشعرين بالبرد؟».

البرد؟ لقد شعرت بالحرارة تسري في كل عروقها عندما لمسها.

- لا.. أنا.. لا اعلم لماذا ارتجف.

- أنا أعرف.. أنت ما زلت تفكرين بحادثة ميل وتعذبين نفسك بسببها.

كم هو بعيد عن الحقيقة، وتمنت، لصالح ميل، أن يبقى هكذا. وتوقفا عن السير، ووقفا جامدين وكان ينظر اليها بغضب وبدأ الحديث ولكن صوت سيمون قاطعه:

- برول! إذاً أنت هنا.

كان صوتها عذباً وهي ترفع عينيها إلى وجهه، ثم انتقلت لتنظر إلى ايمي، التي نظرت مباشرة إليها دون تردد. ولكنها أعادت نظرها إلى برول وقالت وهي تبتسم:

- ضيوفك سيتساءلون عن سبب غيابك.

ودفعت يدها عبر ذراعه. نظر إليها بتعبير بارد وقال:

- يا عزيزتي سيمون، أنا متأكد أنهم لن يسألوا عني. لقد كنتم جميعاً بمن فيهم أنت مشغولون ببعضكم البعض عندما غادرتكم. والخدم ما زالوا يقدمون لكم الشراب، أليس كذلك؟

- طبعاً. وكالعادة أنت مضيف ممتاز، في الواقع أتيت أبحث عن الآنسة ليستر، الدكتور تلقى مكالمة من فندق لاشاست، يقولون ان أحد مرضاه قد تعب فجأة، وهو سيغادر فوراً، وقد ترغب الآنسة بمرافقته.

وأحست ايمي بالصدمة. مريض لجول تعب فجأة في الفندق؟ هل هو جو؟ وسألت باضطراب «هل قالوا من هو؟».

وقالت سيمون «لا.. لقد تلقى الخادم المخابرة وأبلغها للدكتور».

وشهقت ايمي، وحاولت الركض باتجاه المنزل، ولكن يد برول كانت ممسكة بها وجذبها إلى جانبه.

ـ مهلك آنسة ليستر، لا تذعري، لا تعلم من هو بعد، لذا لا تقفزي إلى استنتاج خاطىء. اهدأي، سنعرف المزيد حالاً. ها هو الدكتور.

وقال الدكتور عند وصوله إليهم «ايمي لقد تلقيت مكالمة لأحضر على الفور، سأعود بأسرع وقت ممكن».

«سأذهب معك» واستدارت إلى برول «شكراً لك على هذه الأمسية الممتعة ولكن يجب أن أذهب مع جول».

وأسرع الجميع إلى السيارة، وساعدها برول على دخولها، وانسابت السيارة بهما. وقال جول:

ـ تمنيت لو بقيت في القصر، كنت أنوي العودة.

ـ كيف يمكن ان تتوقع مني البقاء وأنا قلقة؟ ربما كان جو المريض.

ـ ولكنه ليس جو.

ـ وكيف تعرف؟

ـ ألم تقل لك سيمون.

ـ لم تكن تعرف من. هل تعرف أنت؟

ـ لقد ظننت انك عرفت أنه السيد رينو.

وتنهدت بارتياح. مع انها شعرت بالأسف للسيد رينو. ولكن لماذا كذبت سيمون؟ بالتأكيد لم تكن تقصد أن تكون خبيثة؟ فلا يمكن لاحد أن يكون بهذه القساوة، أم هل يمكن؟ وبدا لها أن سيمون قد تكون امرأة غيورة، فلا بد أنها شعرت بالتمزق لرؤيتها برول في الحديقة معها. يبدو أن هذه المرأة قد تمضي إلى ما لا حد له لتحصل على الرجل.

وعندما وصلا الفندق وجدا الرجل المريض ملفوف بالأغطية. والسيد والسيدة برولارد يذرعان المكان بقلق، وقال للطبيب:

ـ آسف لازعاجك يا دكتور، ولكنني شعرت بالتعب أثناء ذهابي إلى البيت، وقررت أن أمر هنا لتناول شراب ساخن، ولكنني انهرت، فاستدعوك.

ـ كان هذا تعقلاً منك سيد رينو، هل تشعر بألم ما؟

ـ أجل في الصدر.

ـ قلبك ممتاز ولكنك مرهق. سأوصلك إلى البيت، وتناول الدواء بانتظام وغداً سأجري لك تخطيطاً لتطمئن وأطمئن أنا.

وصعدت ايمي ببطء إلى غرفتها. وكان رأسها يؤلمها بسبب قلقها على جو. ودخلت بهدوء من غرفتها إلى غرفته، واقتربت من سريره، ورفعت برقة طرف الغطاء فوق ذراعه الصغيرة التي تحضن لعبته. وتركت الغرفة وتركت الباب موارباً وراءها.

كانت في الفراش عندما رن جرس الهاتف، وقرع قلبها بألم عندما سمعت الصوت العميق، وكان برول يقول «آنسة ليستر. لقد عاد جول واخبرني أن جو بخير واخبرني عن كل شيء، وغضبت من سيمون إلى أن شرحت الامر. من الواضح انها كانت بعيدة عن الخادم عندما ابلغه الرسالة، وبالنتيجة لم تكن واضحة بما قالته، وهي ترجوك أن تسامحيها».

ـ أخبر السيدة غرونويلد أن تنسى الموضوع. لطف منك أن تستفسر عني، إنها غلطتي لأنني اعتقدت أن المريض هو ابن اخي.

ـ هذا كرم اخلاق منك، ولكن هذا لا يغير الواقع بانك تكدرت في منزلي بسبب أحد ضيوفي. لقد تكدرت ابنة عمي سيلفيا لأنك اضطررت للذهاب دون رؤيتها، وتريد أن تعرف ما إذا كنت قادرة على قضاء يوم الغد معها. سأخذ ميل إلى المستشفى لإجراء الفحوصات لكوعه.

وترددت ايمي، وهي محتارة بين حاجتها إلى صديقة مثل سيلفيا، وخشيتها من الالتزام بصداقة ابنة عم برول. ولكن بما أن برول لن يكون هناك، فلماذا لا تذهب؟ فهي تعرف أن جو سيحب هذا.

ـ ابنة عمك لطيفة جداً. أبلغها بأننا سنكون سعداء بالقدوم؟

ـ أنا مسرور لأنك ستأتين. لقد أخبرت سيلفيا أنك تأخذين عطلتك

يوم الأحد. هل تناولت مهدئاً بعد الصدمة التي تلقيتها؟

ـ أنا بخير تماماً. شكراً لك، وانا مقدرة للطفك، تصبح على خير.

ووضعت السماعة، لتجد نفسها ترتجف، وعلى وشك البكاء، واستلقت على الوسائد، وتساءلت، لماذا اتصل بها الآن وسلّط عليها سحره. ألم تكن هذه الأمسية مقلقة بما فيه الكفاية؟ ما حيرها، أن رجلاً مثله، واعٍ ومجرب مع النساء ينخدع بتفسير سيمون غير المنطقي لتصرفها. فهل هو واقع في حبها؟

وتخيلت سيمون وهي بين ذراعيه، وأغمضت عينيها بألم. لا تصدق بانها غبية لدرجة أنها وقعت في حب رجل مرتبط بامرأة أخرى. ومع ذلك فشعورها حقيقي. ولكن ذلك الحب الجديد الذي يزحف إلى قلبها دون رقيب محكوم عليه بالفشل منذ بدايته.

وما حدث بعد ذلك كان حدثاً آخر تلك الليلة الغريبة، فقد سمعت قرعاً خفيفاً على الباب ودخلت هيلغا تحمل صينية عليها شراب ساخن:

ـ سيدي الدوق اتصل بنا وطلب لك شراباً ساخناً قبل أن تنامي، إنه رجل لطيف ويفكر بالآخرين، أليس كذلك؟

وتركت ايمي وهي تبتسم لها، وقد جلست في السرير لتتناول الشراب، واغلقت الباب وراءها بلطف. ولكن قبل أن تنهي شرابها كانت دمعتين كبيرتين قد انحدرتا على خدها لتختلط به. وبعد عشر دقائق كانت تغط في نوم عميق.

الفصل الثامن

صباح الأحد، عندما استدارت ايمي نحو الطريق الموصل إلى القصر سألها جو بهمس المحموس «هل نحن ذاهبون إلى القصر يا ايمي؟» وهمست وهي تداعبه «أجل.. سنمضي النهار كله مع عمتك سيلفيا».

ـ وهل لي عمة اسمها سيلفيا؟ وهل تعيش هنا؟

ـ انها تعيش هنا، ولكنها أتت من لندن مثلنا، انظر ها هي.

ونظرت ايمي إلى حيث كانت تقف سيلفيا تنتظر لاستقبالهما عند باب القصر، وقالت سيلفيا بعد أن حيتهما:

ـ أليس هذا يوم جميل؟ أظن أننا سنمضيه عند بركة السباحة.

وحدقت بجو بينما كانت ايمي تقدمه لها:

ـ أنت نحيل جداً، ولكن لا عليك، كل ما يلزمك غداء كبير، وسنتناوله في الخارج.

وأمضت ايمي أسعد أيام حياتها. سبحت في البركة، وتركت جو يلعب في الماء، بينما استلقت هي وسيلفيا على كراسي النوم تحت الشمس، تشربان القهوة. وتبادلتا الحديث، حول مواضيع عدة، من السيارة إلى الولدين الصغيرين، إلى آخر المعارض في لندن في تلك الأونة. واستمر سياشا يقدّم لهما القهوة الطازجة إلى أن احتجت سيلفيا ضاحكة بانها ستنفجر لو تناولت نقطة أخرى، ومضى الوقت. وارتدتا ملابسهما لتناول الغداء على التراس المشرف على الحديقة، وأسرع جو

بعد انتهائه من الأكل إلى البحيرة الصغيرة ومعه يخت صغير أهدته له سيلفيا.

وأشعلت سيلفيا سيكارة، وأطلقت دخانها في الهواء وقالت:

- إنه نحيل بشكل مخيف وضعيف البنية. في الحقيقة أنت شجاعة لأن تتولي مسؤوليته بنفسك، لا بد أنك تنازلت عن كثير لأجله. أتمنى ان لا تندمي على هذا.

وانتقلت عينا ايمي عبر الحديقة حيث يلتمع شعر جو الأشقر تحت الشمس وهو يقف عند حافة البحيرة، وقالت:

- كنت سأندم أكثر لو أنني لم أحصل عليه. واعتقد بأنك كنت ستفعلين الشيء نفسه لو كان ابن أخيك.

وضحكت سيلفيا، وأخذت تخبرها عن أولادها، وكان واضحاً أنها تحبهم جميعاً بنفس القدر. وأخذت آخر نفس من سيكارتها وسألتها:

- ما رأيك بابن عمي الوسيم برول؟

واحمر وجه ايمي، وأدارته نحو الحديقة، وقد سرها أن سيلفيا مشغولة باطفاء سيجارتها. وقالت بحذر:

- أظنه رائع ودمث الأخلاق. في الحقيقة لا أعرفه جيداً لأحكم عليه لماذا تسألين؟

وضحكت سيلفيا، ووضعت يديها تحت رأسها، ونظرت إلى الحديقة وهي تريح رأسها على الكرسي.

- لأنني أحبه جداً. كنت كذلك دوماً. أتعرفين أن سيمون غرونويلد تركض وراءه لتعلقه على الصنارة؟

- أعتقد هذا. ولكن ألا يعرفان بعضهما منذ زمن طويل؟ وقبل أن تتزوج.. هكذا قيل لي.

- هذا صحيح.. لطالما أرادت سيمون أن تحصل على برول. لا أعلم إذا كان هو يريدها. لقد عرف الكثيرات، ولم يلزم نفسه سوى بواحدة. وتابعت كلامها وكأنها تحدث نفسها:

- سيكون أمراً مأساوياً لو تزوج من سيمون، فإنها ليست من طرازه، لا أعلم ماذا يعجبه فيها؟

- إنها جذابة.

- دعيني أخمن، امرأة ذكية جداً، وربما اعجبت برول لأنه يجد أنها تهتم به. زوجها كان رجلاً محترماً الى أن انشبت مخالبها به، وجعلت حياته مريعة، فقد بدأ الشرب والمقامرة بعد زواجهما. لقد لاحظت أن عينها على ذلك الصناعي، ولكن ما من شك أن برول سيكون هدفها الأول لأنه ليس غنياً فقط بل وسيم وشاب ومثير أيضاً.

- وكان لطيفاً جداً مع ميل. هل سيبقى الصبي في المستشفى؟

- أجل سيبقى لأجل الفحوصات. هذه الأشياء تحدث للأطفال، وخاصة للصبيان.

وسارتا في الحديقة بعد الغداء، ثم عادتا لتناول الشاي في التراس. وبعد لحظات دخل برول إلى التراس. وأطبق سحر جاذبيته على قلب ايمي في الحال. وقال بابتسامة مشرقة:

- ما هذا الاستقبال لرجل تعب؟ مخلوقتان ساحرتان، أنا متأكد أنهما ليستا من هذا العالم.. أتمانعان في أن أنضم اليكما؟.

ورفع طرف بنطلونه وجلس على كرسي وظهره إلى الحديقة، وأقبل ساشا وبيده صينية عليها فناجين وصحون وابريق قهوة طازجة.

وقالت سيلفيا وهي تنفذ ما تقوله، بعدما غادر ساشا:

- اعتقد أنني سأرد لك هذا الإطراء بتقديم الشراب لك.

وقبل برول فنجان قهوة، ثم استدار إلى ايمي وهو يدير الملعقة بالفنجان: «كيف حالك آنسة ليستر؟ هل أنت لوحدك؟».

- أنا بخير شكراً لك. جو معي وهو يلعب بقارب يسيره في الحوض.

- أهو بصحة جيدة؟

- أجل.. هذا الطقس الرائع وهواء الجبال، يفعلان العجائب.

وشرب فنجانه ووضعه مع الصحن على الطاولة وتناولت سيلفيا سيكارة وقدمت له واحدة وأشعل ولاعته وأشعل السيكارتين. ثم استوى على كرسيه ومد ساقيه وأخذ يدخن، وسألته سيلفيا:

- كيف كان ميل عندما تركته؟

- بخير، والداه في طريقهما إلى هنا، لذا فهو سعيد لبقائه في المستشفى طالما يبقيهما هذا بقربه.

- ربما يعودان إلى بعضهما.

- هل نزلت إلى بركة السباحة اليوم آنسة ليستر؟

- لقد أمضينا الصباح هناك.

- وهل ستعودين ثانية؟ أهلاً بك في أي وقت.

وعندما لم ترد عليه ايمي، وجه انتباهه لسيلفيا التي كانت تدخن وتنظر بتجهم نحو الحديقة وتابع كلامه.

- منذ وقت، كانت الآنسة ليستر تستخدم بركة السباحة مع ابن أخيها بناء لدعوتي: ثم، ولسبب مجهول، لم تعد ثانية.

وأجابت ايمي بسرعة بعد أن رأت أن سيلفيا تنظر اليها متسائلة.

- السبب بسيط في الواقع. يناسبنا أكثر السباحة في البحيرة بعد أن اعتاد جو على الماء. فليس لديّ سوى وقت محدود بعد المدرسة لاعطائه دروساً في السباحة.

وقالت سيلفيا «ولكن يمكنك استخدام البركة هنا عندما يكون اليوم بارداً، وخلال الشتاء»

وتحركت ايمي بقلق، لتجد نظرة برول الساخرة مركزة على وجهها المتورد. وكأنه يقول لها.. خلصي نفسك من هذه الورطة الآن.. ولكن قدوم ساشا أنقذها، ليقول لبرول إنه مطلوب على الهاتف.

وعندما دخل إلى المنزل، وقفت ايمي وهي تقول:

- لقد مضى الوقت، لقد أمضينا النهار كله تقريباً هنا. لا أستطيع تذكر يوم ممتع كهذا من قبل وكذلك جو. شكراً لك على لطفك ولاعطائك القارب له.

وأطفأت سيلفيا سيكارتها وقالت:

- لقد تمتعت بهذا اليوم أنا أيضاً. وأنا اتمنى أن نصبح صديقتين عندما أعود للسكن هنا.

وعاد جو من الحوض مع قاربه وسارت سيلفيا معها وذراعاهما معاً نحو السيارة.

- آنسة ليستر!

ووقع صوت برول العميق على اذني ايمي كالجرس وهي تستدير حول السيارة. وتوقفت، وسار نحوها، وهي تحس بالراحة لأن السيارة بينهما. وقال:

- لقد كان المتكلم على الهاتف والد ميل، وسيتناولان العشاء معي الليلة، وسيكون من دواعي سروري إذا وافقت على الحضور، وان تكوني مضيفتهما.

وشعرت ايمي بقشعريرة فوق بشرتها، وهي تتذكر كراهية ميل لها، ومهاجمتها في البركة، والاصابة في يده التي تعتبر نفسها مسؤولة عن التسبب بها. وابتسمت بنعومة معتذرة:

- أنا آسفة، لن أستطيع المجيء. لدي أشياء أحضّرها لمدرسة جو غداً لطف منك أن تطلب مني هذا، وشكراً على دعوتك للسباحة.

وفتحت باب السيارة ودخلت إلى مقعدها. وودعت سيلفيا وبرول، وقادت السيارة مبتعدة. وتصاعد الدم إلى وجهها لدعوته غير المتوقعة، وشعرت بوجنتيها تحترقان على الرغم من برودة الهواء. وجلس جو إلى جانبها وهو فرح بلعبته الجديدة. وشعرت ايمي في وحدتها ببعض الأصوات الساخرة كانت تكرر: برول! برول! برول!.

الفصل التاسع

بينما كان يوم الاثنين يمضي ببطء بكل أوجهه، ظهر لايمي، أن وجود ميل في المستشفى سيجعل خدمات السيدة غرونويلد بحكم المنتهية، كذلك زياراتها لـ «شاتو دي فلور». لذا لم تكن مندهشة لرؤية سيمون تنتظرها مع جو.

ـ آه.. آنسة ليستر!

وابتسمت لايمي تلك الابتسامة المعهودة، وردت عليها ايمي بتحية مؤدبة:

ـ نهارك سعيد سيدة غرونويلد.. هل أردت رؤيتي بخصوص الدروس المسائية؟

ـ أجل، ولكن فقط لأطلب منك متابعتها لوقت قصير. أترين... من المهم أن أحصل على وقتي حراً مساء الثلاثاء والخميس لأسبوع أو اسبوعين بعد، لقد سمعت ولا شك أن ميل في المستشفى ولست متأكدة إذا كان سيعود أم لا، لم يتم تقرير شيء بعد، ولكن هناك أسباب أخرى تجعلني لا أرغب في استعادة واجباتي في المدرسة الليلية. بالطبع، لا أستطيع الكشف عن هذه الاسباب، ولكنها موجودة. هل ستفعلين هذا لأجلي آنسة ليستر؟

ـ إذا أردتِ ذلك.

وفتحت باب السيارة لجو ليدخل، وربتت سيمون على رأسه، ثم ابتسمت لايمي شاكرة.

ـ شكراً لك آنسة ليستر، أقدّر لك لطفك لهذا المعروف. واهنئك على الطريقة التي تربين بها ابن أخيك. فسلوكه جيد جداً في الصف، وهو مثال للأولاد الآخرين.

وقال لها جو، وهما يبتعدان «السيدة غرونويلد لطيفة معي. لقد أتى سيدي الدوق إلى المدرسة اليوم. لقد رأيته وتحدثت معه»

ـ أفعلت هذا؟ ماذا قلت له؟

ـ لقد سألته عن حال جواده دولين.

ـ وماذا قال لك؟

ـ قال إنه أخذ دولين عند البيطري، ولكنه أحسن الآن. وسألني عن دروس السباحة. وقلت إنني أفضّل الدروس في بركة السباحة في القصر. ولكن بما أنني الآن أملك هذا القارب أستطيع تسييره في البحيرة.

ـ وماذا قال حول هذا الأمر؟

ـ قال إنه يأمل أن لا يعني هذا أنني لن أحضر إلى بركة السباحة ثانية. ألم يكن الشاي الذي قدمه لنا ساشا لذيذاً؟

وضحكت ايمي «أعتقد أن الطعام هو السبب في حبك للسباحة في البركة أكثر»

فيما بعد، أثناء إعطاءه درس السباحة في البحيرة، لاحظت أنه فقد حماسته للسباحة، ربما كان السبب أنه يملك القارب الآن. ولكنه بشكل غريب تعب من اللعب بسرعة. وهما عائدان إلى الفندق لاحظت أن وجهه محمر. ولم يكن عنده القابلية على العشاء، وذهب إلى الفراش، واستغرق في النوم. وكانت ترتب له ملابسه عندما وقع منديله من جيبه. وحدقت بالمنديل برعب وقد لاحظت نقطتين من الدماء عليه. وجمدت في مكانها وهي تحاول استجماع افكارها. هل من الممكن أن الدم خرج من سعاله؟ ربما كان قد جرح اصبعه أو صدم يده بشيء حاد مما سبب ظهور الدم. وأحست بألم حاد في رأسها وقلبها، مع محاولتها

أن تبقى شجاعة. هل يجب أن تتصل بجوك؟ أم أنها مرتعبة للاشيء؟ وشعرت ببرودة غريبة تسري في جسدها. وتنهدت عميقاً ووضعت ملابس جو على الكرسي وأبدلت له المنديل.

ولم تنم تلك الليلة. واستفاق جو حوالي الثانية صباحاً وهو يشكو من ألم في ضرسه. فأعطته اسبرين للأطفال وبعض الماء، وارتاحت عندما عاد إلى النوم.

في اليوم التالي لم يذهب جو الى المدرسة، بل أخذته ايمي إلى طبيب الأسنان. وكانت السيدة برولارد قد أعطتها فرصة ذلك النهار لتأخذه إلى الطبيب ليخلع له ضرسه. وعندما غادرا العيادة فيما بعد وجدا صعوبة في السير عبر الأرصفة المكتظة، وكان هناك من بعد صوت موسيقى يملأ الجو. ووجدا مكاناً على طرف الرصيف في الوقت المناسب ليشاهدا الجنود يسيرون خلف فرقة موسيقية عسكرية. وأخذ جو يراقبهم بسعادة وقد زال الألم في ضرسه.

صباح يوم السبت وصلها خطاب له مظهر الاهمية وعليه ختم شاتو دي فلور. كان دعوة لها لحضور حفلة رقص للاحتفال بعيد ميلاد سيلفيا. ضمنته رسالة تقول فيها:

«عزيزتي ايمي:

يقيم برول كل سنة حفلاً يوم عيد ميلادي، الذي يتوافق مع عيده. أرجوك ان تحضري، ولا تزعجي نفسك بالهدية.. مع حبي.. سيلفيا»

وحدقت ايمي بالدعوة والرسالة، وهي تتذكر طلب السيدة غرونويلد منها متابعة الدروس المسائية. الحفلة ستقام يوم الثلاثاء، عندما ستكون سيمون في المدرسة الليلية، ولن تستطيع حضور الحفلة، ولحضور مثل هذه المناسبة الهامة يأخذ المرء وقتاً للتحضير. لذا طلبت منها الاستمرار في التدريس. ووضعت ايمي الدعوة والرسالة في المغلف. الطريقة الوحيدة، هي شراء الهدايا، وتضمينها رسالة تشرح سبب عدم استطاعتها قبول الدعوة.

وفي اليوم التالي اشترت الهدايا! لسيلفيا عقد جميل واقراط تناسبه، ولبرول قلم.. وهدية جو كانت علاّقة مفاتيح على شكل حصان لبرول، وبعض المناديل للعمة سيلفيا. وتم تغليف الهدايا بشكل جميل.

في عطلة نهاية ذلك الاسبوع حاولت ايمي أن تنسى كل شيء عن الحفلة ولكن الصور أخذت تتراقص في ذهنها للقصر، وقاعاته المريحة الدافئة، والنساء الجميلات والرجال الذين سيحضرون، والخدم يحملون الصواني الفضية.

ولكن أكثر صورة مزعجة كانت الصورة التي تصورتها لسيمون، وكتفيها الجميلين فوق فستان سهرتها، وشعرها اللامع الذي يصل تقريباً الى كتفي برول عندما تذهب إلى الظل معه.

يوم الأحد، تناول جول العشاء في الفندق وانزعج عندما علم انها لن تحضر الحفلة الراقصة.

- ولكن يجب عليك أن تذهبي. سأتأخر أنا قليلاً، وسأتصل بك حوالي الثامنة والنصف عند عودتك من المدرسة. ما عليك سوى تغيير ثوبك. هل اتفقنا؟

وهكذا ستذهب ايمي الى الحفلة.. وكانت جاهزة عندما حضر جول ليصطحبها.

بعد أن رقصت مع جول، وقفت عند النافذة وهي تلتقط انفاسها بينما ذهب هو لإحضار بعض المرطبات. لقد كانت الحفلة رائعة أكثر مما تصورت. وشاهدت سيلفيا ترقص بين ذراعي زوجها، وشاهدت عدة نساء يرقصن بأثوابهن الجميلة وشاهدت سيمون، وكانت ترقص مع براندت فيتزر.

- هل تمتعين نفسك آنسة ليستر؟

كان برول، ينظر اليها، بتعبير على وجهه لم تفهمه، قد يكون فحصاً أو ساخراً، حتى وهمياً أيضاً، وتساءلت لماذا ينظر اليها هكذا.

ثم ظهر لها بألم أنه يغار من اهتمام سيمون ببراندت فيتزر. خططها لجعله يشعر بالغيرة أثمرت. وأجابته:

ـ أجل شكراً لك. آسفة لتأخيري، لم أكن آتية، ولكن جول تأخر أيضاً وأصر على اصطحابه لي، لطف منك أن تدعوني.

ـ آمل فقط أن لا تكوني ترهقي نفسك بالعمل الكثير. فالكسب المالي. هو بديل سيء للصحة الجيدة.

ـ أوافق معك.. ولكن لست أدري ما علاقة هذا معي!

ووضع يداه في جيوبه ونظر اليها وقال:

ـ لقد أخبرتني سيمون أنك طلبت منها أن تسمح لك بأخذ الدروس الليلية عنها.

ولم تستطع ايمي الكلام للحظات، وقد أدهشها ما قاله، وبالتدريج شعرت بحرارة الغضب وارتجاف في أطرافها. إذاً لم تكتفِ سيمون باستغلال الدروس الليلية لابقائها مشغولة بل أنها متعمدة كذبت حول أسباب استمرارها بها. وتابع يقول:

ـ ربما قصدت ان تظهرها بهذا الشكل لأنك تحتاجين إلى هذه الدروس كثيراً.

ونظرت اليه ايمي، في البداية بفزع، ثم بنوع من اليأس. سيمون، ذكية، ذكية أكثر من ايمي ليستر التي لم تتعامل مع الأكاذيب أو الخداع، في تلك اللحظة احتقرت برول لأنه صدق تلك المرأة، وامتنعت عن أي تفسير. وترددت، وأوشكت على البكاء وبكل هدوء ودون انفعال، سمعت نفسها تقول:

ـ يبدو ان من عادة السيدة غرونويلد أن تعطي الانطباع الخاطىء. على كل الاحوال، لست أدري ما علاقتك بالامر سيدي الدوق.

ـ أنا آسف إذا كنت أسأت الفهم.. لم أقصد الاهانة، أعطيت نصيحة فقط. أنت طفلة لطيفة، وأحب أن أرى الأطفال يتمتعون بحياتهم دون الإضرار بصحتهم.

نظرته القاسية الساخرة جعلتها تشعر أنها صغيرة جداً وغير ناضجة. وقالت بانفعال:

ـ أنا لست طفلة، ولكنني أفضّل أن أكون بين الأطفال بدلاً من بعض الكبار.

وارتفع ذقنها بما عنت أن يبدو تحفظاً. فليظن بها ما شاء، ما تمنته فقط أن يتوقف قلبها عن الخفقان، ليملأ الصمت الذي ساد بينهما.

ـ أوافق معك..

قال هاتين الكلمتين ببطء، تاركاً عينيه تتجولان على وجهها، وعلى اللون الاحمر الذي بدأ يغزو بشرتها الصافية، وعلى عينيها اللامعتين بالغضب. وفجأة ضحك بخفة:

ـ في الحقيقة أتيت لأقول لك ان جول استدّعي للخارج، وعلمت منه أنك بانتظار المرطبات. هل تسمحين أن أنضم اليك أرجوك؟

مرة أخرى أحست بسحره، وترددت. لو أنها تملك سلامة التفكير لرفضت بأدب، وهربت بعيداً عنه قدر المستطاع قبل أن يفوت الأوان. ثم تذكرت خداع سيمون، وحاولت تضليل نفسها بأن تبتسم له بإثارة تقريباً، رداً على تلك المرأة بنفس طريقتها.

ـ أجل... أرجوك.

وقادها الى طاولة صغيرة من عدة طاولات متناثرة في الغرفة قرب الجدران وأجلسها.

ـ سأعود بعد دقيقتين.

وابتعد عنها. ثم عاد بسرعة ومعه صينية مليئة ووضعها على الطاولة وبدأ بافراغ ما عليها. وأقبل ساشا خلفه ومعه ابريق عصير وأكواب. وقال برول «شكراً يا ساشا، سأصب العصير بنفسي».

ورمشت ايمي عينيها لمنظر سندويشات الدجاج، واللحم، والكركند المليئة بالتوابل اللذيذة، وتلك المعجنات السويسرية التي تسيل اللعاب. والتقت عيناهما وهو يملأ الكؤوس وقال بنعومة:

ـ أتعرفين ما يعني هذا. . يقال إن الشراب عندما يصب وتظهر فيه النجوم يكون فالاً حسناً.

ورفع كأسها وهو لا يزال واقفاً ينظر إليها.

ـ لنشرب نخبك آنسة ليستر. . لصحة جيدة لك.

ولكنها لم تشرب. بل نظرت اليه ترد على نظرته لها وقالت:

ـ لعودة أيام سعيدة، ولعديد من أعياد الميلاد، سيدي الدوق.

ـ شكراً لك.

وانحنى لها بأدب وأخذ كرسياً وجلس قريباً منها. وقال:

ـ هل نأكل الآن؟

لم تكن ايمي متأكدة أن رد فعلها المرح كان بسبب جو الحفلة أم بسبب قربه منها. ابتسامته افرحت قلبها. وقال:

ـ أنت تشعرين ببرودة في قدميك. سندفئها بالرقص. بعد إنهاء الشراب. . شكراً لك على هدايا الميلاد.

ـ آمل أن تكون أعجبتك. لقد اختار جو هداياه بنفسه. ومن الطبيعي أن يعتقد انك تحب الجياد كما يحبها هو.

ـ سأحتفظ بها دوماً. كذلك القلم.

ـ سيفرح جو عندما يعرف.

ـ وانت.

ـ هذه الليلة سأكون فرحة لأي شيء.

واكملت شرب كأسها، وهي تتوق للإحساس بذراعيه يحيطان بها، وهي لا تجرؤ على الالتقاء بهاتين العينين الزرقاوين المثيرتين ثانية. وبدأت الموسيقى. ووضع برول كأسه ووقف.

ـ هل لي بهذا الشرف؟

بعدها كانت ايمي بين ذراعيه. وكانت تشعر بتأثير قربه المدمر، بينما كان وقع الموسيقى يصبح متناغماً مع وقع دقات قلبها. الخجل، الاحراج، الشعور بعدم الراحة، ذهبوا عنها، وتحولت الغمامة الزهرية

أمام نظرها إلى أضواء حمراء، ثم ذهبية، وأغمضت عينيها، فمثل هذه الإثارة لا يمكن لها أن تدوم، فقد كانت سابقة لأوانها.

ـ شكراً لك آنسة ليستر، كان الرقص معك ممتعاً، أرى سيلفيا قادمة إلى هنا، لذا سأتركك معها، وأنتبه قليلاً للضيوف.

ووجدت نفسها تبتسم لسيلفيا، كانت تضع العقد والاقراط، وسرت ايمي لرؤية كم يناسبان ثوب السهرة الحريري بلون التركواز.

ـ تعالي. . لنجلس ونتحدث.

وأطبقت يدا سيلفيا الدافئة على يديها عندما التقتا، وسارتا نحو مقعدين مريحين.

ـ لم أستطع الاقتراب منك منذ وصولك، ظننت انك لن تأتي. وكم سررت عندما وصلت.

وجلستا وابتسمت لها بحب، ونظرت باعجاب الى ثوبها الابيض

ـ تبدين جميلة. هيفاء وانيقة، وأحب ثوبك. أنا أرتدي هديتك، شكراً كثيراً لك. الا تعتقدين أن الهدية جميلة؟ سأرتديها دائماً وسأذكرك كلما ارتديتها. والآن أخبريني كيف استطعت القدوم؟

وشرحت لها الامر، وهزت سيلفيا رأسها باهتمام.

ـ لا تعملي كثيراً. . فلديك ما يكفيك من الاهتمام بجو. سأتصل به لشكره على الهدية. سنسافر يوم الخميس صباحاً، لذا لن أراكما قبل ذلك الوقت. وما أريده منك حقاً هو أن تزورينا عندما تعودين إلى لندن، سأعطيك العنوان.

وتحدثتا معاً بسعادة، وتعجبت ايمي من السرعة التي تصادقتا بها، وكم أصبحت تحب ابنة عم برول. وقالت سيلفيا:

ـ أليست الحفلة رائعة؟ أكره أن تنتهي، لأنني سأكون قد كبرت سنة.

ـ لا تبدي حزينة هكذا، تمتعي بالحفلة؟

ـ أتعلمين. . لدي شعور أن هذه آخر حفلة يقيمها برول وهو

أعزب. سجلي كلامي، سيكون متزوجاً في مثل هذا اليوم من السنة المقبلة.

واهتز العالم وتوقف بالنسبة لايمي في تلك اللحظة، حتى أن أنفاسها جمدت في حنجرتها، وأصبحت الغرفة ضبابية أمام عينيها. وشعرت وكأنها تلقت لطمة قاسية.

وتابعت سيلفيا، وهي غير مدركة، لحسن الحظ، تأثير كلماتها على صديقتها:

ـ أنا أحبه كثيراً، وتمنيت أن يستقر منذ زمن طويل، لم يقل لي شيئاً، ولكن العمال سيأتون إلى القصر بعد مغادرتنا، سيعملون على إصلاح جناحه الخاص وسيعيد ديكور غرفة الأولاد، ولا بد أنه سيريك التصليحات بعد أن تنتهي. أتمنى أن تكون زوجته أي شخص ما عدا سيمون. إنها قاسية ولا تناسبه.

وتخلى اللون عن وجه ايمي، وشعرت بالجليد يزحف حتى قلبها. وجلست هادئة في محاولة يائسة لتهدئة عواطفها. لقد أحست بكلمات سيلفيا كالسكين تقطع في كل الاماكن الحساسة في جسدها.

وجاء الانقاذ على شكل ضابطين شابين تقدما ليطلبا شرف مرافقتهما. ولبقية السهرة دفعت نفسها في متعة الرقص، وعاد جول في الوقت المناسب لترقص معه عدة مرات، قبل أن يغادرا القصر. وعلمت ايمي انه لاحظ فوراً توّرد وجهها، وارتجافها القريب من رجفة الحمى. ولم تندهش عندما بدأ بالمقدمات ليسألها عن السبب وهما في طريقهما الى الفندق:

ـ هل رقصت كثيراً بعدما غادرت؟ اتمنى أن لا تكوني تعبة جداً، وتغالين بالعمل.

للمرة الثالثة ذلك المساء ذكر لها أنها تعمل بجهد كثير. فاتخذت موقفاً عدائياً وقالت بلهجة متحدية:

ـ أجل.. لقد رقصت كثيراً، ولست تعبة، شكراً لك، انت ثالث

شخص يذكرني اني اعمل فوق طاقتي. وأنا أفضل حكم على نفسي، وهذا شأني لوحدي. ولست ملزمة بالاستماع لأي كان.

ـ بوصفي طبيبك لديّ الحق بأن انصحك.

ـ أعرف هذا.. ولكنني اتمنى ان لا يعاملني الناس وكأنني بحاجة لرعاية. واعتقد أن شيئاً لن يقال فيها لو كنت ارملة ولديّ ابن.

ـ في هذه الحالة كنت ستتلقين إعانة تدعم ما تكسبينه.

ـ أجل.. ولكنني راضية بوضعي.. لنغير الموضوع، هل كانت زيارتك مهمة؟

ـ أجل.. انها لمنزل أوجين باليتر، طباخهم جرح رجله، فعالجت الجرح واصروا على تناولي العشاء معهم، ثم عدت إلى القصر، هل عرفت أن والدا ميل سيعودان للسكن معاً في باريس؟

وفرحت ايمي لهذه الاخبار الجيدة، وبأن الصبي سيعود إلى اهله.

ـ انني مسرورة! ربما ستتحسن حالة يده عندما يستقر سعيداً بين والديه.

ـ لذا أريد أن أطمئن أنك لن تمنحي الكثير لجو على حساب صحتك. وأريد التأكد أنك ستتصرفين بتعقل أثناء غيابي.

ـ وهل أنت مسافر؟

ـ أجل.. هذا الاسبوع. سأتقدم بامتحان قبول لدراسة درجات عليا في الطب. وأتمنى أن يتم قبولي. جورج سارتيز يعتقد أنني سأنجح.

ـ وأنا متأكدة أيضاً. وماذا عن عملك هنا؟

ـ الطبيب في المستشفى سيعتني بمرضاي أثناء غيابي سأغيب حوالي الأسبوع.

ـ والسيارة التي اقرضتني إياها؟

ـ سأتركها لما بعد، حتى أعرف نهائياً ماذا سيحدث.

ـ جو وأنا سنفتقدك. ولكنني أظنك تفعل ما هو صائب. شخص ما في يوم ما سيكون سعيداً لأنك قررت أن تصبح جرّاحاً.

ما تبقى من المسافة إلى الفندق مضت بصمت. وعندما أوصلها جول إلى باب الفندق قال «سأسافر مساء الغد، لذا لن أراك ثانية، اعتني بنفسك» وأجابته «وأنت أيضاً... حظاً سعيداً».

الفصل العاشر

اتصلت سيلفيا من القصر يوم الخميس صباحاً لتشكر جو على هديته لها وللوداع، فهم مسافرون عند الظهر. وطار جو فرحاً لتلقيه مكالمة هاتفية خاصة له. وتحدثت ايمي بضع كلمات مع سيلفيا وودعتها ثم اعادت السماعة إلى جو وهي تشعر بالحزن لفراق صديقتها. ومن ثم تناولا الفطور وأوصلته الى المدرسة.

في طريق عودتها الى الفندق أخذت تفكر بالدروس المسائية، وقررت أن تذهب لدرس ذلك المساء وتنهي الأمر، وتترك الامر لسيمون لتقرر ماذا تفعل، وستبلغها عند أول فرصة.

من كرم الاخلاق أن تعطي تلك المرأة تحذيراً مسبقاً عن نواياها بعدما قالته عنها. ولا يهمها أن تعرف السبب الحقيقي وراء رغبة تلك المرأة أن تتابع عنها الدروس، كل ما تعرفه أن المرأة قد حطت من كرامتها أمام برول.

تدريجياً بدأت روحها المعنوية ترتفع، فصداقتها مع سيلفيا ذكرتها بان العالم لا يزال مليء بالناس من أمثالها لمصادقتهم. وشعرت بالراحة أيضاً لأنها ستنهي كل اتصال بينها وبين سيمون.

فرصتها لإخبار سيمون بأنها لن تستمر بالدروس المسائية، أتت في اليوم التالي عند وقت الغداء. فقد اقبلت سيمون الى الفندق مع برندت فيلر لتناول الطعام، وتركت ايمي مكانها، واقبلت نحوهما وهي تبتسم،

WWW.REWITY.COM

ورد برندت فيتزر الابتسامة بلطف، وبدا وجه سيمون كالحاً وجافاً في ضوء الصباح:

ـ هل لي بكلمة معك سيدة غرونويلد؟ لن أؤخرك أكثر من لحظة. بعد هذه الأمسية لن آخذ عنك دروسك المسائية.

وضاقت عيناها الجميلتان في تحديقة قلقة، وافترّت شفتاها الحمراوين عن ابتسامة شاحبة:

ـ ولكن لماذا آنسة ليستر؟ هل هناك مشكلة؟

ـ مشكلة؟ ولمَ يكون هناك مشكلة؟

ـ ما هي الاسباب إذاً لعدم استمرارك بتقديم هذه الخدمة لي؟

وجه سيمون أصبح الآن متوهجاً بالغضب، هذه المرأة مسؤولة عن جو، وفكرت ايمي: يجب عليّ أن أكون حذرة جداً بما أقول:

ـ لقد طلبت مني اعطاءك سبباً سيدة غرونويلد، وسأعطيك نفس السبب، أقول إنني لا أستطيع كشف الاسباب، ولكنها موجودة، أرجوك المعذرة.

وبرباطة جأش، ابتعدت عنها ايمي، نحو ضيف كان يقف أمام طاولتها ينتظر عودتها، ومر بقية اليوم دون أحداث. وعلى الرغم من ألمها لفقدان الاتصال مع تلاميذها، فقد وجدت نفسها سعيدة بحريتها.

مساء سفر جول إلى انكلترا، وجدت ايمي نفسها تفكر به وهي تنظف السيارة. فقد أصبحت السيارة لها أهمية عندها وعزيزة عليها وستأسف لأن تخسرها. في النهاية سيبيعها جوك، وربما كان الثمن الذي سيطلبه كبيراً عليها ووقفت تنظر باعجاب إليها وهي تلمع. ثم أخذت تنظف المقعد الخلفي، ووجدت، رخصة السيارة محشورة بين المقعد والمسند الخلفي، وكشف لها تفتيش آخر حقيبة. كانت رخصة السيارة باسم شيلا ماكفارلان، زوجة جوك الراحلة. والحقيبة تحتوي على بعض المال، وورقة مكتوبة طويت بعناية، وعلى الورقة موجز عن دفعات توفير

بتاريخ يعود إلى سنتين. وإلى جانب آخر دفعة كلمات «أسبوعين آخرين وسيكون معي ما يكفي لشراء معطف جديد».

وبفضول كبير، جلست على المقعد الخلفي واخذت تعد المال. بالعملة السويسرية كان المبلغ يوازي ثمانين جنيهاً استرلينياً. وراجعت ايمي المبالغ المسجلة على الورقة لتجد أن المبلغ مماثل. واعادت المبلغ والورقة الى الحقيبة وهي تفكر.

ما هذا الأمر الغريب! لماذا تحتاج زوجة جول للتوفير لشراء معطف جديد بهذه السرية؟ مسكينة شيلا، لقد ماتت قبل أن تشتري المعطف هل كان جول بخيلاً لدرجة أن على زوجته أن تجمع القليل، ثم القليل كل اسبوع من أجل شراء قطعة ثياب؟ عندما قال لها بترول عن بخل جول لم تصدقه وقتها. والآن بدأت تدرك كم قضت زوجته أوقاتاً مزرية معه. لقد جمعت المسكينة المال خفية ليعود إليه في النهاية لأنه ملك له الآن. وشعرت ايمي بالانزعاج، وأول ما فكرت به التخلص من المال بأسرع وقت ممكن. وعليها أن تسرع لرؤية جول قبل ان يسافر.

بعد عشر دقائق كانت في طريقها إلى منزل جول، وأخذت تفكر بنوع المعيشة التي قضاها الزوجان معاً. وقررت ان تصارحه بانها قرأت الورقة واحصت المال. فقد يكون مثيراً أن ترى رد فعل جول. ولكونه رجل شحيح سيغتبط لحصوله على المال، وسيكون أقل حساسية للمذكرة الصغيرة عن المعطف الجديد، مما شعرت به ايمي التي لم تقابل زوجته أبداً.

كان المنزل هادئاً بشكل غريب عندما وصلت. قرعت الجرس ثلاث مرات ولكن دون جواب. وشعرت بالخيبة، لقد كان أكثر راحة لها أن تتخلص من المال، ثم لتسمع ما سيقوله جول عن الامر.

وخطت إلى الوراء، وهي تحدق في النوافذ الصامتة، وكانت تلك اللحظات كالهدوء الذي يسبق العاصفة، وفجأة سمعت صوتاً رجالياً عميقاً يمزق الهدوء.

ـ مساء الخير آنسة ليستر، يبدو انك تسألين عن الدكتور بإلحاح. أتمنى أن لا يكون أحد ما مريضاً؟

واجفلت، واستدارت لترى برول يسير باتجاهها، بالطريقة السهلة المسترخية المعهودة، وشعرت بالاضطراب، وبألم في قلبها. من حولها كانت اضواء المساء الرقيقة، تملأ المكان بظلال سرية ثقيلة. ثم أصبح يقف إلى جانبها وهو ينظر بثبات إلى وجهها المحمّر وتمتمت وهي تشعر بغبائها التام:

ـ لا.. لا أحد مريض.. إنها... انها ليست زيارة عمل. أردت رؤيته حول قضية شخصية.

ـ إذاً لقد أتيت لتشاهديه قبل السفر. لقد أردت أنا أيضاً رؤيته لأسباب أخرى، لقد اتصل جورج سارتيز ليبلغ جول الرسالة، وسألني إذا كان قد سافر أم لا، لذا أتيت لأراه.

ووقفت تنظر اليه ويداها مشبوكتين أمامها، وهي تشعر بأنها صغيرة جداً وساذجة. وتحبه بجنون، وهو يرمقها بنظرة ساحرة، وقد علمت أنها لا تستطيع تجنب العذاب الذي سيسببه هذا الحب لها، ثم تابع:

ـ لا بد انك ودعتيه قبل الآن، أم انك لم تستطيعي مقاومة رغبتك بإلقاء نظرة أخرى عليه؟

ربما كانت ايمي تبدو كالمحرومة، لأن تعبير وجهه بدأ يصفو ولم ينتظر ردها، فقال:

ـ سأتصل بجورج، واقول إنني تأخرت في توصيل رسالته، هل هناك رسالة تودين ابلاغها لجول عبر جورج.

ـ لا.. شكراً لك.. يمكنني الانتظار إلى أن يعود.

ـ ربما يكون الامر شخصياً جداً ولا يحتمل وسيطاً. هل هذا ما تعنينه؟ اتعلمين أنه ذاهب للتخصص، وأن معظم أوقاته في السنوات القادمة ستكون مخصصة للدرس؟ وأن لا شيء يجب أن يلهيه؟

ـ أعلم هذا... ومن غير المحتمل أن تلهيه صداقتنا عن الدراسة

ـ ومع ذلك تسرعين متلهفة لإلقاء نظرة عليه قبل أن يسافر؟

وحدقت ايمي بمظهره الساكن، بتعاسة، وشعرت بشيء يصعد إلى حنجرتها ليجعل صوتها غريباً وجافاً.

ـ أجل، ولكن لسبب شخصي جداً، كما قلت، لا أستطيع كشفه لوسيط.

ـ من سوء حظك أنك لم تلحقيه. ستشتاقين إليه دون شك. ولكن رسائله قد تعزيك.

ـ أنا متأكدة من هذا.. والآن ارجوك عذراً.

ـ طبعاً... الأفضل أن اذهب أولاً، لاعطائك مجالاً لإرجاع سيارتك عمت مساءً آنسة ليستر.

عادة جو يحب نهاية الاسبوع. ويستيقظ عادة مع الطيور يوم السبت ليتسلق سرير ايمي ويسألها عن برنامج اليوم. لذا كان غريباً ان تستيقظ ايمي صباح ذلك السبت في الثامنة على الهدوء ودون رؤية جو. وانزلقت من السرير ووضعت روبها ودخلت إلى غرفته.

خطوتين داخل الغرفة اخبرتاها سبب عدم استيقاظه، فقد عانى من نزف، وهناك دم على غطائه، وهو مستلقٍ على ظهره وقد اغمض عينيه، وتوقف قلبها عن الخفقان، وبدأت ترتجف برعب. وأسرعت لتلتقط يده الصغيرة بحثاً عن النبض. وكانت أصابعها ترتجف بشدة حتى أنها لم تكتشف مكان النبض.

الساعة التي تلت كانت كالكابوس، وحضرت السيدة برولارد وقد اصفر وجهها مثل وجه ايمي، واتصلت بسيارة الاسعاف، التي حضرت على الفور، وحُمل جو ملفوفاً بالأغطية ووضع في السيارة وصعدت ايمي معه. وكان الطبيب والممرضة بانتظاره، وحمل إلى الداخل فوراً، وبقيت ايمي منتظرة في الممر بوجهها الشاحب، ورفضت ان تجلس في قاعة الاستقبال الخارجية. وبعد فترة بدت لها وكأنها ابدية، خرج الطبيب، وسار نحوها وقال:

ـ آنسة ليستر؟ أنا الدكتور لاكونت، لقد اخبرني الدكتور ماكفارلان كل شيء عن ابن أخيك. تعالي.. اجلسي لنتحدث.

وأخذها عبر الممر إلى مكتب صغير يحتوي طاولة وكراسي وخزانة، وأجلسها على كرسي في مواجهة الطاولة، فسألته بلهفة «كيف حاله؟» وجلس إلى المقعد وراء الطاولة. وحدق بها ومال إلى الأمام ووضع ذراعاه على الطاولة.

ـ لقد طلبت القهوة.

ودخلت ممرضة تحمل صينية عليها القهوة وقال «آه.. ها هي ضعيها على الطاولة أرجوك.. شكراً.. سأصبها بنفسي» وبعدما غادرت الممرضة الغرفة. صب القهوة وقدم فنجاناً لايمي «أريدك أن تشربي هذه أولاً، ثم تسترخي. لقد تلقيت صدمة ويجب عليك ان تستريحي».

ـ هل سيموت؟ أفضل ان تقول الحقيقة بدل إبقائي مضطربة.

وعضت على شفتيها لتوقف ارتجافها ووضعت الفنجان خوفاً من الصدمة.

وأضاف الطبيب السكر لقهوته وأخذ يرتشفها.

ـ اشربي قهوتك. مثلي، اعتقد أنك لم تتناولي شيئاً هذا الصباح، لذا اشربيها، وكوني فتاة طيبة.

وبالتدريج اكتسبت ايمي بعضاً من هدوئه، واضافت السكر لقهوتها وارتشفت منها. ثم وضعت الفنجان بلهفة. ووضع الطبيب فنجانه ونظر اليها.

ـ اخشى أن يكون النبأ سيئاً عليك آنسة ليستر، فالمسكين عانى من نزيف حاد.

ـ ولكن هل هناك أمل؟

ـ لقد وضعنا له المصل.. ولكن..

ـ هل استطيع أن أراه؟

ـ طبعاً. ولكنه لا يزال غائباً عن الوعي. ولكن على شرط، لا لدعي منظره يكدرك. وتذكري أننا نفعل ما باستطاعتنا.

وبقيت ايمي مع جو طوال النهار والليل. وكانت الممرضات لطيفات جداً، وجلبن لها القهوة باستمرار مع وجبات خفيفة واصررن على ان تتناولها.

ولكن ايمي لم تستطع أن تمس شيئاً منها، واستمرت فقط في شرب القهوة. وزارها الدكتور لاكونت عدة مرات خلال الليل. وزارها ثانية في أول ساعات الصباح. ولم تتغير حالة جو. ومات عند الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم دون استعادة وعيه.

الفصل الحادي عشر

ومر اسبوع وايمي تستيقظ كل صباح وهي مدركة تماماً ان جو قد ذهب. وفي عالم تغير أمامها نهائياً حاولت عبثاً أن تجمع أفكارها. وخلال الليالي الطويلة، كانت تستلقي وهي ترتجف على الرغم من دفء الفراش. كل حرارة جسدها كانت تستخدمها في مشاعر ثائرة ومضطربة.

ربما كانت قد أطلقت العنان كثيراً لخيالها في إنقاذ ولد يتيم بائس محروم، وهذه الزيارة إلى سويسرا كانت جزءاً منه. الشعور بالفشل كان قاسياً والصدمة الفجائية بخسارة جو تركت ارتباكاً في تفكيرها رفض أن يترك أي شيء يمر من خلاله. الكل كان لطيفاً جداً معها. السيد والسيدة برولارد طلبا منها أن تأخذ قسطاً من الراحة، ولكن الحياة يجب أن تستمر، حتى ولو فقدت معناها. وهكذا مضت ايمي بتنفيذ واجباتها، وابقت حزنها مدفوناً في داخلها. وهي تتعذب من أجل جو، هل الليالي طويلة عليه حيث هو كما هي طويلة عليها حيث هي؟ هل يشعر بالحنين والخوف من دونها؟ لقد وعدته بأن لا تتركه أبداً، فكيف ستستطيع وضع تلك الاميال بينها وبين ذلك القبر الصغير على سفوح التلال؟

وبناء على طلبها ابعدت هيلغا كل أشياءه عنها. ولكن هناك اشياء يجب أن تفعلها بنفسها، مثل الكتابة إلى محامي جو. أما بالنسبة لجول

فهناك وقت كاف لتقول له عند عودته. وكتبت للمدرسة وللسيدة فرونويلد شاكرة لهم تقديم أكاليل الزهور ورسائل العزاء. ولم تتلق أي خبر عن برول منذ الليلة التي قابلته عند منزل جول، وفهمت أنه مسافر.

ووجدت نفسها تفكر به دون أية عاطفة، فقد كان لموت جو تأثير مهلك عليها، جمّد كل مشاعرها. الوقت الفارغ والهش وحده ممكن له أن يلطف الإحساس الفظيع داخلها والألم المعتم الثقيل الذي كان يجثم على قلبها. ثم وفي صباح أحد الايام وصلتها باقة من الورود حمراء فاتحة جميلة ورسالة عزاء من برول. لقد عاد!

بعد ظهر ذلك اليوم أخذت الباقة إلى قبر جو، في الوقت الذي كانت عادة تأتي به من المدرسة. وكان القبر الصغير يقع بين قبور أخرى مرتّبة في موقع جميل في مكان ليس ببعيد فوق القرية. وكان مغطى بباقات صغيرة من زهور الجبال وضعها له زملاؤه في المدرسة. وحدقت بها ايمي وقد نشف الدمع من عينيها. وقالت لها السيدة برولارد: «لو إنك تستطيعين البكاء»، ولكنها لم تستطع. كانت من داخلها قد نشفت مثل آنية زهور لم تستعمل منذ سنوات. وأخيراً نزعت نفسها من تلك البقعة الصغيرة المثيرة للأسى، واستدارت ورأسها منحنٍ لتتابع خطواتها عائدة إلى الفندق.

وشاهدت وهي ترفع رأسها شخصاً قادماً إليها، وصرخت «أبي!» ثم ركضت هابطة المنحدر لتلتقي به «اوه... أبي!» وأخذ يراقبها وهي تركض، وقد أصبحت وجنتاها الشاحبتين بلون الزهر، وفكر بها انها لم تتغير، لا تزال طفلة، وجهها الصغير كله عيون، جميل، محبوب، إنها ايمي التي لم يرها منذ ثلاث سنوات. وقطب جبينه فجأة لمرأى نحولها، ولمرأى كل ما أخذه منها جو، ولكن هذا كله زال عندما ضمها بحنان بين ذراعيه. وكررت اسمه. كانت صرخة من القلب، بالعطف والرجاء، والحب. ثم أرتجف وجهها ودفنته في صدره. وقد فتحت أبواب الحزن المغلقة.

بعد ذلك بكثير، وهما يتناولان العشاء في الفندق سألته:

- كيف عرفت بموت جو؟

وكانا يجلسان في غرفة الطعام في الداخل، وليس على تلك الطاولة الصغيرة في الزاوية، فهي لم تكن قادرة على تحمل الجلوس عليها.

- لقد أخبرني المحامي.

- آه يا أبي.. أنا أفتقده كثيراً.

وهطلت دموعها. وكانت عيناه، حنونتان تتفحصان وجهها، وجه يبدو عليه الألم وعينان تفصحان بالمأساة.

- لقد كان الحمل مستحيلاً عليك. ما كان على أخوك أن يتزوج امرأة رقيقة الصحة مثلها، كما لم يكن عليه أخذها إلى إفريقيا. أشعر بأنه كان سيكون حياً اليوم لو لم يقم باختيار خاطىء لزوجته.

- لكن هذا ما حصل يا والدي، لا بد أنه كان يحبها كما أحببت أنا جو. ومن المؤكد أنه سيفعل الشيء نفسه ثانية لو أنه عاش مرة ثانية. والآن أخبرني كل أخبار الوطن.

كان كل ما أخبرها أياه أخبار طيبة. العائلة بخير، أمها تركت وظيفتها في المجلة واشتروا فندقاً في إسكتولندا

- ولكن ألن تفتقد لوظيفتك يا أبي

- لقد أحببت المكان، وستحبينه أنت أيضاً. أترين.. ليس عندنا فقط أماكن لصيد السلمون، ولرياضة الزوارق في النهر، بل نفكر بإقامة مصعد للتزلج. لقد أتيت لاستشارة المهندسين هنا بالأمر.

- هذا رائع يا أبي!

- أنت ضمن المشروع.. فنحن بحاجة لموظفة استقبال.

وعضت ايمي شفتيها «سأفكر بالأمر.. لفترة معقولة. فنحن الآن مشغولون جداً هنا ولا أستطيع أن أخذل السيد والسيدة برولارد في وقت يزدحم فيه الزوار»

- ولكن ستأتين في النهاية. أمك يخفق قلبها انتظاراً لعودتك.

- أجل أعتقد ذلك، كم ستبقى هنا؟

- حوالي الأسبوع.. ستتعشى في الخارج غداً مساءاً.

- صحيح؟

واستدارت عينا ايمي من الدهشة، وهز رأسه بالإيجاب وتابع الأكل بلعة وقال: «هذا السمك لذيذ.. ولكن انتظري لتذوقي السلمون الذي نصطاده طازجاً».

- أبي.. كنت تقول...

- آه.. أجل.. ستتعشى مع صديق لك قابلته في الطائرة وأنا قادم إلى هنا.

- هل هو جول ماكفارلان.؟

- يبدو وكأنه اسكتلندي، من هو؟

- إنه طبيب كان لطيفاً كثيراً مع جو ومعي.

- لا.. فهذا فتى جذاب وجميل.. إنه سويسري.. اسمه برول دو بوليان اي بوڤي.

- الدوق؟

واضطربت ايمي، ونظر والدها إلى حيرتها الكبيرة.

- هل هو دوق؟ لم يقل هذا. ما هو شكل الشاتو دي فلور؟

وابتسمت ايمي لنظرته القلقة «إنه ليس من الآثارات يا أبي. الدوق رجل ثري، وأعلى منا كثيراً، كما أخشى. لقد كان لطيفاً مع جو».

- أجل لقد لاحظت هذا، فقد كان متكدراً جداً عندما سمع بوفاته، وأكثر من مهتم بي عندما علم أنني والدك، ولكن ألا تحبينه؟

- لم أقل هذا. لن أتعشى معه يا والدي. لا أريد الذهاب إلى أي مكان.

وابتسم ساخراً «وهل لي ان أسأل لماذا؟».

- لا أشعر بالرغبة، هذا كل شيء.

وقال ببطء «أتعنين أنك لا تشعرين بالرغبة في الذهاب إلى شاتو دي فلور».

ـ إنه لا يناسبني.. أمن المهم لك الذهاب إلى هناك؟

ـ مهم جداً.. لقد كان مهتماً بفكرة مصعد التزلج، وسيدعو بعض الخبراء لمناقشة الموضوع وبعض الصناعيين الأثرياء للقائي. سنحتاج إلى ممولين للمشروع، كما أخشى.

ـ لكن بامكانك الذهاب وحدك.

ـ انت بصحة جيدة للذهاب، وأرفض أن اقدم اعتذاراً واهياً لغيابك فانت تعرفين كم أكره الكذب، إضافة إلى ذلك يعجبني الفتى ولا أريد أن أغضبه.

ـ سأذهب يا والدي.

ـ أنت فتاة طيبة.

ولكن ايمي لم تشعر بأنها على ما يرام في الامسية التالية عندما كانت تقود سيارتها مع والدها نحو القصر. وتجنبت ذكر برول، وتحدثت عن جول والسيارة التي أعارها لها. ولكن باقترابها من القصر بدأت تشعر بالتوتر لفكرة رؤية برول ثانية. وبدأت تحس بكل المشاعر السابقة. وبقيت صامتة.

وقال لها والدها: «إذاً، أنت لست مسرورة من قدومك إلى القصر، كنت أفكر أن هذا بسبب عدم امتلاكك لثوب سهرة. ولكن يبدو أن هذا ليس السبب، فأنا اشعر بالفخر بك.. فانا لم أشاهدك من قبل بهذا الجمال... أنا أرفض أن أطريك زيادة لأجعلك مزهوة بنفسك! هذا الثوب الأبيض يعطيك شيئاً ما. تبدين شاحبة قليلاً، ولكنني أعتقد أنك ستكونين أكثر احمراراً قبل أن تنتهي السهرة».

وتساءلت ايمي عما يقصد، ولم يكن هناك وقت لتسأله لانهما كانا قد وصلا أمام القصر، وشعرت بقلبها يقفز بقوة في داخلها.

وعلق والدها قائلاً: «ما هذا المكان الفخم!»

وخرج من السيارة لينظر إلى الواجهة الحجرية الرائعة للقصر وأضاف:

ـ لقد فعلت حسناً بارتدائي ثياب السهرة!

وجوده شجع روحها المعنوية وسرت ايمي كم كان منظره لائقاً ومميزاً في ثوب السهرة، ودخلا الردهة، وقد أنيرت بالألوان الزاهية لشمس المساء.

ووجدت برول ينظر إليها، ويحييها بصوت يعكس حزنه على جو. ثم حيا والدها وكأنه صديق قديم. وارتجفت ذراعها في يد والدها دون أن يلاحظ.

ووجدت الضيوف مجتمعين تحت الثريات وكلهم رجال، أربعة منهم. وكان برندت فيتزر واحد منهم، والثلاثة الآخرون ربما كانوا من حضر برول للقائهم مع والدها. ولم يصل أي ضيف آخر. وذهب الجميع إلى العشاء في غرفة جميلة، مليئة بالكريستال والفضة وباقات الزهور مرتبة على طاولة بيضاوية.

وجلست ايمي بين برول ووالدها. وتناولت ثالث دورة من الطعام قبل أن تلاحظ ما أكلته. وسمعت برول يتحدث بصوته العميق مع أحد الضيوف، وكان واضحاً أنه لم يشعر بأي غضاضة لوجود ايمي وسطهم. وكالعادة جلب لها سحره جو الراحة الذي يميز اي حفلة عشاء. وشعرت ايمي أن الضيوف الآخرين ينظرون إلى وجودها مثل الزينة للحفلة.

وعندما التفت برول للتحدث إلى ضيف على يساره، سرقت ايمي نظرة إليه. كان يبدو مكتمل النشاط، ساحراً بتلك العينين الزرقاوين وللحظات مؤلمة أشار ذلك الرجل في حديثه إلى سيمون. ماذا تفعل هذه الليلة؟ ولماذا ليست هنا؟ وعندما التفت برول فجأة التقى بنظراتها، وجعلتها عيناه الزرقاوان ترتجف. كم كان جذاباً، وسيكون على الدوام، بذلك الوجه النحيل الساخر وذلك الشعر الأسود، الذي أصبح منظره جذاباً أكثر تحت انعكاس الضوء الفضي.

ووضعت الطرائد امامها وقد طهيت بشكل رائع. وأكلت ايمي بشكل آلي دون أن تستطعم بشيء. ثم تبع العشاء قهوة لذيذة مماثلة لروعتها مع الاكل.

ونهض برول وقال «اعذروني يا سادة، سآخذ الآنسة ليستر في جولة على القصر، بينما تبحثون في الأعمال بينكم». ونظرت إلى والدها نظرة اضطراب، فغمزها، لقد غمزها فعلاً! ونهضت ايمي وساقاها ترتعشان، وسمحت لبرول أن يرافقها إلى خارج الغرفة.

وهكذا بدأت رحلة العذاب في مشاهدة المنزل الذي حضّره لعروسه. وبدموع تترقرق في مؤخرة عينيها بدأت تنظر إلى الأثاث الأنيق، وإلى الخزائن من خشب الماهاغوني، وعليها فنون الحفر اليدوي، والمرايا الفرنسية، ذات الاطر الذهبية، واللوحات الجميلة. وفوق الجميع ستائر مشمشية دافئة مخملية موشاة بلون الكريم والذهب، وغرفة الأولاد زرقاء بلون قشرة البيض وأخيراً الجدران المكسوة بالزجاج في مكتبه الخصوصي.

كانت ايمي تسير إلى جانبه، وخطواتها تغرق في السجاد السميك، وهي تتوق لانتهاء الجولة قبل أن تصل حافة الانهيار. غرفته كانت رجالية محضة، طاولة كتابة جميلة بتصميم رائع. مقاعد بسندات مغطاة بقماش قطني مطبّع موضوعة على جانبي المدفأة ولوحات تعطي مزيداً من اللون للجدران. وشعرت ايمي، وهي لوحدها هناك معه. بشعور صادم وكأنه يخيفها، فاتجهت فوراً نحو المدفأة، متسائلة لماذا اتى بها إلى غرفته؟.

وقفت هناك مسمرة، وكأنها طيف صورة عكسية أمام الزرقة الفاتحة للسماء في الخارج. وتركزت نظراتها على نجمة بعيدة، تشبثت بها وكأنها طوق نجاة. ثم أقبل برول ليقف وراءها، ووضع يداه على كتفيها وادارها ببطء لتواجهه. وذعرت لأول لمسة من يديه، ثم بدأت ترتجف. وجعلت الدموع عيناها واسعتان ولامعتان، ووجهها شاحب، وشعرها كهالة يعطيها جمالاً أخاذاً، جمال غريب يلتقط أنفاسه.

ـ هل هذه الدموع لجو؟ لو أنك تحبيني نصف ما كنت تحبينه سأكون أسعد رجل في العالم.

وفي اللحظة التالية كانت بين ذراعيه، يعانقها بلطف، وخفّف لون الظلال في الغرفة أكثر، تحيط بهما في سعادتهما الغامرة.

كانت ايمي تعلم أنها يجب أن تبعده عنها، ولكن بدلاً من ذلك كانت تتشبث به، وجسدها النحيل الرقيق يضغط عليه وهمست:

ـ أرجوك.. لا يجب أن تتصرف هكذا، هذا ليس مناسباً.

ـ لماذا ليس مناسباً؟

ـ بسبب سيمون.

ـ وما دخل سيمون؟

ـ ألن تتزوجها؟

ـ كنت تزوجتها منذ زمن بعيد لو أنني كنت راغباً بها.

ـ أنت لا تعرف ماذا تقول أو تفعل...

وأدارت وجهها عنه، ولكنه أعاده بطرف أصابعه ولعدة لحظات، حدقت عيناه بها وهما تلمعان، وشد ذراعه حولها. وقاومته ايمي وقالت متوسلة:

ـ أرجوك دعني.

وجعله توسلها يفلتها قليلاً، وقال بغضب «ألا تعجبك... معانقتي؟»

ونظرت إلى عينيه الزرقاوين وضاعت «يعجبني؟... اوه... يا برول... أحبه!»

وغرقت ايمي في بحيرة من السعادة وهي تتمتع بإحساسها بقربه قرب عاطفته وحبه. وسألها:

ـ أتحبيني؟

وهزت رأسها بالايجاب وعيناها تلمعان بالدموع وهمست:

ـ هل أنت أكيد أنك تحبني.

وهز رأسه وقال «أنا لا أحبك، بل أعبد كل شيء من حولك. أحببت حنوك العميق على طفل تعيس، أحببت صبرك، لطفك، طريقة

ضحكك الهادىء، انوثتك، قدرتك على اعطاء الحب. أنت تملكين كل الصفات التي لم أظن أبداً أن أجدها في شخص حبيب جميل واحد».

ـ لا أصدق أنك تحبني هكذا

ـ سوف تصدقين قريباً!

وضمها ثانية بقوة أكثر، وأصبحت الظلال في الغرفة أطول، وأطل القمر ليرمي شعاعه عليهما. وسألته:

ـ ألن يتساءل ضيوفك عن سبب غيابك؟

ـ يا حلوتي، لا بد أنهم نسوا وجودنا الآن.

ـ أمر فظيع أن تدعوني لوحدي وسط الرجال.

وظهرت ابتسامته في ضوء القمر بيضاء:

ـ لقد أحبوا هذا، إضافة إلى ذلك، كيف كنت سأحصل عليك لوحدي؟ ستتزوجيني، وقريباً؟

ـ وماذا عن وظيفتي؟

ـ سيجدون غيرك، لقد طلبت الإذن من والدك للزواج.

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد سر جداً. الصدف ذراعها طويلة. لقد التقيت والدك في لندن منذ أيام. لقد قال لي صديق، مهندس بارع، انه ذاهب إلى لندن لقضاء عمل، وهو هناك سيقابل شخصاً اسمه ليستر، يهتم بمصعد للتزلج في اسكتلندا. في البداية لم أجد له صلة معك. ثم هل تذكرين تلك الليلة التي رأيتك فيها عند منزل جول، ألا تظنين أن من الغريب انني لم أرسل ساشا لتبليغ الرسالة بل قدمت بنفسي.

ـ أظن هذا.

ـ السبب الحقيقي أنني أردت سؤال جول عن أخباركما، لقد وصلت إلى ذروة توتري ولم أعد استطيع الانتظار، وأملت أن تعطيني ولو تلميح بسيط أنك معجبة بي قليلاً. وكنت خائفاً أن أفقدك. وهكذا ذهبت إلى

لندن، وقابلت والدك، كذلك قابلت جول، وتوضحت لي الامور. قولي لي كم كنت معجبة بجول؟

ـ أعجبت به كصديق، وليس أكثر، ولكن يا برول، ابي قال إنه التقى بك في الطائرة.

ـ لقد تقابلنا في الطائرة. تدبرنا الامر في الليلة السابقة على العشاء.

وأمسكت عيناه بعينها، وجعلتها تلك النظرة ضعيفة، ومد يده إلى جيبه وأخرج علبة. وقال:

ـ أرجو أن يناسب مقاسك، لقد خمنت مدى نحول يديك وقارت المقاس.

ـ اوه يا برول إنه رائع!

وحدقت ايمي بالسوليتير الماسي وهو يضعه في اصبعها. وسألها:

ـ هل هو مريح؟

ـ وجميل... ومقاسه مناسب تماماً. تستطيع شراء كل خواتمي.

وضحكت، ونظرت إليه، وطوقت عنقه بذراعيها. «شكراً لك»

وكانت هذه آخر كلمات تبادلاها قبل فترة عناق طويلة ثم قالت له:

ـ أخبرني عن لوسيل داربليه. هل كنت تحبها كثيراً؟

ـ مسكينة لوسيل! كانت طفلة، في الثامنة عشر عندما ماتت، نهاية مأساوية لفتاة جميلة. لقد أحببتها كشقيقة جميلة صغيرة. لقد كانت الولد الوحيد لعائلة صديقة، ووقعت في حب ضابط سويسري شاب كان مستهتراً بعلاقاته الغرامية، وأغراها بسيارته السبور، التي كانت بالنسبة لها رومنسية جداً، وعندما تخلى عنها كانت محطمة الفؤاد وحبست نفسها في الغرفة لأشهر، رافضة أن ترى أحداً. وجاء أهلها لطلب المساعدة مني، وهكذا أخرجتها من عزلتها وتصرفت وكأن علاقتنا جدية. ثم عاد إليها الضابط وطلب رجوعها، فطلبت مني إعلان خطوبتنا، لأنها علمت أي نوع من الرجال هو. وبعد عدة أسابيع قتل أثناء المناورات. ودمرت حياة لوسيل، فقد كانت لا تزال تحبه على الرغم مما كان. وكنا

في متجع سانت اغطوان للتزلج عندما سمعت الخبر. وقتلت في نفس اليوم بحادث تزلج.

ـ مسكينة لوسيل! هل كان حادث فعلاً؟

ـ لقد كانت خبيرة في التزلج، ولم يبدو لي الأمر كحادث، لقد اختفت فوق هوة. وعلامات تزلجها كانت ظاهرة حتى قمة الهوة حيث اختفت، ولم نجد جسدها ابداً. ولكن هناك شهود قالوا إنهم رأوها تسير بسرعة هائلة ولم تبذل أي جهد للتوقف، واستمرت متعمدة فوق الهوة.

ـ ربما يكون الضابط قد اكتشف انه يحبها أيضاً في النهاية، وقد تحطم قلبه، كما جرى للمسكينة لوسيل...

وأمسكت وجهه بين يديها بحنان وتابعت:

ـ أنا سعيدة جداً لأنك انتظرتني.

وكان عليه ان يظهر لها مدى سعادته هو أيضاً.

وتزوجا في الكنيسة الصغيرة الجميلة القديمة، التي أحمرت جدرانها بفعل شمس القرون، حيث كانت عائلة برول تتعبد منذ أجيال. وحضرت عائلة ايمي لحضور الزفاف، وكانت اختها المراهقة جيليان، الإشبينة مع سيلفيا سارتيز التي كانت اشبينة الشرف، وإذا كان ثوب سهرة ايمي الأبيض قد أضفى عليها الجمال، فإن ثوب العرس الأبيض الحريري قد فعل أكثر من هذا بكثير فقد بدت مشرقة في تاج صغير يمسك بالخمار على وجهها الذي يسترسل من الخلف فوق ذيل طويل مزخرف.

كانت عيناها ما زالتا يحيط بهما ظلال من الحزن على خسارة جو، مما اعطاها جمالاً مؤثراً، والنظرة التي رمقها بها برول وهي تتقدم نحو المذبح متأبطة ذراع والدها، لن تنساها ما حييت، وكانت الكنيسة مكتظة بالضيوف، وبالقرويين الذين أتوا ليشاهدوا الفتاة الانكليزية التي أسرت قلوبهم بإخلاصها لابن أخيها الصغير.

وأمام دهشة ايمي، اتت سيمون مع برندت فيتزر. وعلمت أن برول هو الذي دعاها، ولكن ايمي لم تتوقع قدومها، واخذت تعرض خاتم خطوبة جديد ليراه الجميع، وشعرت ايمي بالشفقة على برندت فيتزر الذي يستحق أفضل منها.

وجرى تناول الفطور بمناسبة الزواج في القصر حيث بقي بعض الضيوف لقضاء الليل، وبعدها بفترة قصيرة سافر العروسان في رحلة شهر العسل.

وقفت ايمي على شرفة الغرفة في الفندق الذي يطل على الرمال التي تغسلها مياه البحر المتوسط في غلالة نوم، غداً ستذهب لتتجول في مدينة علاء الدين المليئة بالكنوز الشرقية، الجواهر، والحرير الناعم والجلود، والسجاد، وأحذية النوم المنمنمة الرائعة.

في وقت مبكر من ذلك المساء تناولا العشاء في الفندق قبل مغادرته للتجول في الضواحي. وكان هناك تحت قمر الصحراء، فرسان من البدو في جلابيبهم الفضفاضة حيث رقصوا على جيادهم وتبع ذلك الراقصات، وعروض السحر، ثم أصوات الطبول والمزامير الشرقية، حيث شاهدا مراسم عرس شرقي أقيم لزوجين شابين في ملابسهما البدوية التقليدية.

وانهمرت الدموع من عيني ايمي وهي تتذكر جو. كم كان سيحب الجياد الراقصة! والتفتت إلى برول ووضعت رأسها على صدره وقالت بحزن «لقد كنت أفكر بجو. لقد أحببته كثيراً يا برول!».

وأمسك برأسها بين أصابعه، وحركها بلطف.

ـ بالطبع لقد أحببتيه. كلنا أحببناه. يوماً ما سيكون لك صبيان لك. دزينة لو شئت.

ـ سآخذهم إلى قبره وأخبرهم كل شيء عنه.

وتنهدت، ثم شعرت به يضحك بصمت فالتفتت اليه متسائلة.

ـ ماذا يضحكك؟

ـ آسف.. لم أستطع منع الضحك. هل تتصورين اثنا عشر صبيا لهم عيناك البنيتان الحلوتان وهم ينظرون بوقار الى القبر الصغير؟

ـ لن يكون لهم مثل عينيّ. سيكون لهم مثل عيناك، ويشبهونك تماماً.

ـ الاثني عشر كلهم؟

ـ أنت سخيف! لن يكون لنا اثنا عشر ولداً، مع أنني سأحبهم جميعاً. مهما كان عددهم.

ورفعت وجهها عن صدره ونظرت اليه.

ـ آه يا برول... فكر بالأمر فقط! صبي أو اثنان، لنا. ألن يكون الأمر رائعاً.

ـ بل ستكون حياتنا كالجنة يا حلوتي.

وبرفق، وامتلاك كامل ضمها وأخذ يمسح الدموع عن وجهها، وأحست بالدفء الجميل وهي تضع ذراعاها حول رقبته لتتعلق به، بحب شديد وبدا كل ما حولهما كالسحر الغامض. ليلة سحر تونسية، وقد اغلق سحرها عليهما في عالم خاص بهما.

ـ آسف.. لم أستطع منع الضحك. هل تتصورين اثنا عشر صبيا لهم عيناك البنيتان الحلوتان وهم ينظرون بوقار الى القبر الصغير؟

ـ لن يكون لهم مثل عينيّ. سيكون لهم مثل عيناك، ويشبهونك تماماً.

ـ الاثني عشر كلهم؟

ـ أنت سخيف! لن يكون لنا اثنا عشر ولداً، مع أنني سأحبهم جميعاً. مهما كان عددهم.

ورفعت وجهها عن صدره ونظرت اليه.

ـ آه يا برول... فكر بالأمر فقط! صبي أو اثنان، لنا. ألن يكون الأمر رائعاً.

ـ بل ستكون حياتنا كالجنة يا حلوتي.

وبرفق، وامتلاك كامل ضمها وأخذ يمسح الدموع عن وجهها، وأحست بالدفء الجميل وهي تضع ذراعاها حول رقبته لتتعلق به، بحب شديد وبدا كل ما حولهما كالسحر الغامض. ليلة سحر تونسية، وقد اغلق سحرها عليهما في عالم خاص بهما.